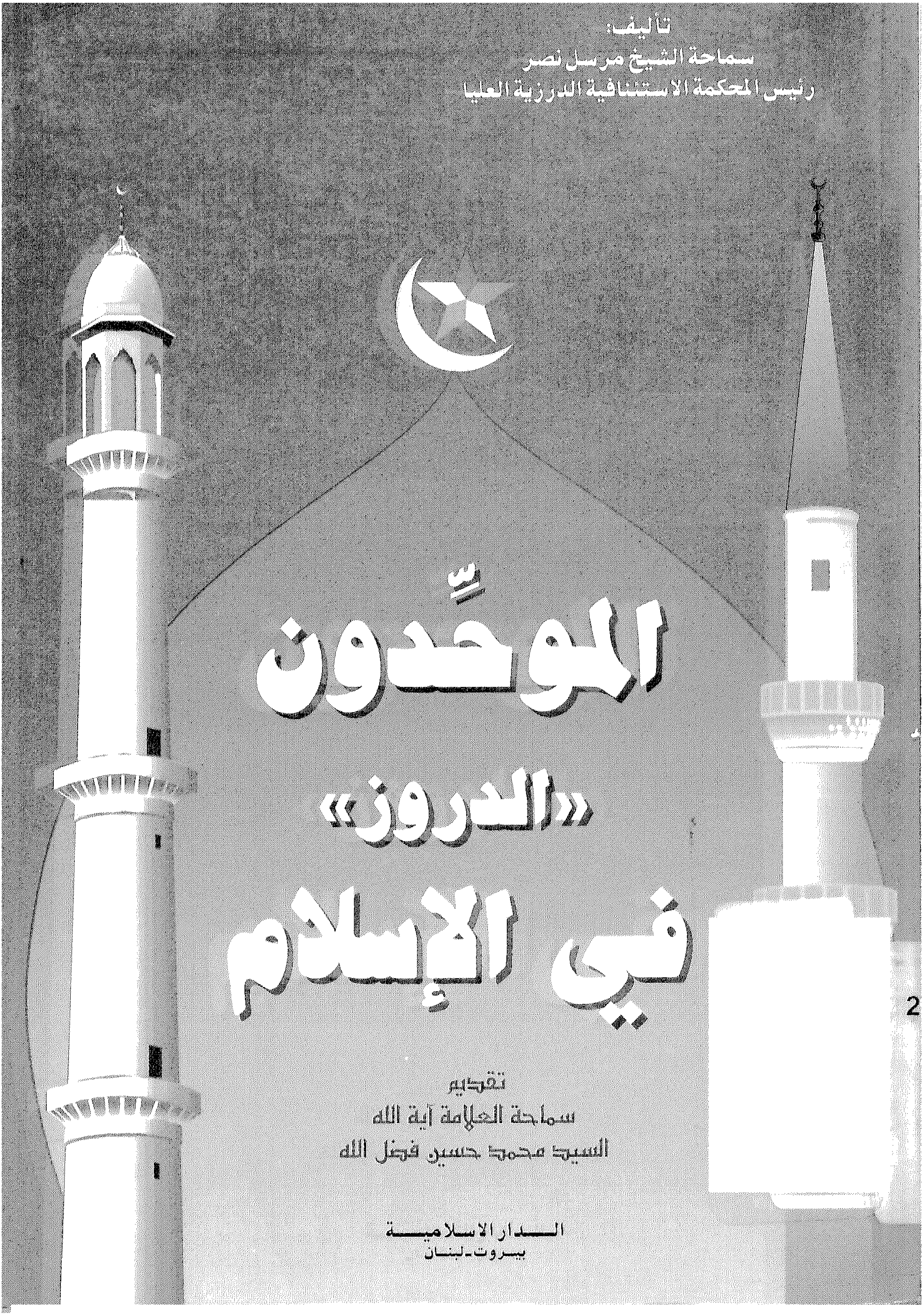
تأليف:
سماحة الشيخ مرسل نصر
رئيس المحكمة الاستئنافية الدرزية العليا



الموحِّدون «الدروز» في الإسلام

تقديم
سماحة العلامة آية الله
السيد محمد حسين فضل الله

الدار الاسلامية
بيروت - لبنان

الموحـــــدون

«الدروز»

فـــي الاســـلام

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧

الــدار الإســلاميــة

حــارة حــريـك ـ شارع دكاش ـ مقابل مدرسة الآميـكال مودرن

هاتف: ٨٢٠٠٣١ ـ ٨٣٥٦٧٠ ـ ص.ب ١٤/٥٦٨٠ كورنيش المزرعة

الموحدون
«الدروز»
في الاسلام

تأليف

سماحة الشيخ مرسل نصر
رئيس المحكمة الاستئنافية الدرزية العليا

الدار الإسلامية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل مسلم مؤمن موحّد،

إلى كل من آمن بالرسالات السماوية والأنبياء المرسلين،

إلى نابذي التعصّب،

إلى المنصفين الناظرين بنور العقل،

إلى العاملين على وحدة المسلمين

أهدي كتابي هذا..

مقدمة
بقلم: سماحة اية الله
السيد محمد حسين فضل الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وعلى جميع أنبياء الله المرسلين.

وبعد...

فقد يكون من مشاكل هذا الشرق هذه الضبابية الذهنية المسيطرة على واقع العلاقات الدينية في المجتمعات الدينية المتنوعة في أديانها ومذاهبها بحيث افتقدت الوضوح في التصور للعقائد والأفكار والمناهج لهذا الدين أو ذاك أو لهذا المذهب أو ذاك، مما أدى إلى الكثير من الجدل العقيم من خلال الإتهامات القاسية البعيدة عن التركيز في وعي العمق الفكري للدين أو للمذهب إنطلاقاً من الخلفيات التاريخية السلبية ومن العقد النفسية الكامنة في النفوس بفعل بعض التراكمات السياسية والإجتماعية والثقافية.

وربما كان هذا الواقع الثقافي سبباً لكثير من المنازعات الحادة والخلافات المعقدة التي تركت آثارها على الناس كلهم فابتعدت المواقع وانكمشت المواقف وتحركت القوة لتتعسف في التعامل مع هذا المذهب أو

التفاصيل العبادية في طبيعة الشروط الشديدة المفروضة على الذين يمارسونه من خلال الصفاء الروحي والإستقامة العملية وشرح الأحكام الفقهية في العقود والمعاملات ونحوها بما لا يختلف عن الخطوط العامة في الفقه الإسلامي مع بعض الإختلافات الإجتهادية في هذا الحكم أو ذاك على أساس بعض الحيثيات الفقهية في تبرير هذا الإجتهاد أو ذاك مما يجعل من قضية الخلافات قضية إختلاف في الإجتهادات في قواعد هذا المذهب من خلال الخط الفقهي العام.

وهناك دراسة تاريخية مفصلة للشخصيات الموحدية بما يزيل الكثير من الغموض عن هذه الشخصيات التاريخية المهمة.

إن هذا الكتاب يمثل وثيقة ثقافية حية بإسلوب الصراحة والوضوح، ولذلك فإننا نجد فيه نقلة نوعية في توضيح حقائق هذا المذهب الإسلامي لتنطلق المناقشات حوله من موقع علم وفكر.

ونأمل أن تتبع هذه الدراسة دراسات تفصيلية منفتحة على البحث العلمي والفقهي في الإستدلال على كل هذه المفردات بشكل مفصل من خلال المصادر الإسلامية الأصيلة وفي مقدمتها الكتاب والسنة من أجل مواجهة الكثير من الأحكام الإرتجالية الإنفعالية الصادرة من الخارج.

كما إننا نرجو أن ينفتح الواقع الإسلامي في المذاهب الإسلامية كلها على حوار إسلامي منطلق من الإخلاص للحقيقة الإسلامية بعيداً عن قدسية التعصب المذهبي بما يمنع الإنسان من الإنفتاح.

إن علينا جميعاً أن نبحث عن الإسلام في أصالته الفكرية كما لو كان عنواناً جديداً في تجربتنا الثقافية في العقيدة والسلوك فذلك هو الذي يؤدي إلى الوحدة المرتكزة على قاعدة العلم والفكر في الذهنية الموضوعية العادلة.

وبذلك يمكن لنا أن نتخلص من الضباب الفكري المذهبي، والدخان

النفسي الخانق لننفتح على الصحو المشرق المبدع للحقيقة والهواء الطلق النظيف للفكر.

وإننا نقدر لصديقنا الجليل هذه التجربة الثقافية راجين له المزيد من التوفيق ولكتابه المزيد من الإنتشار ولإخواننا الموحدين المزيد من الانفتاح على الواقع الإسلامي كله في الفكر والواقع في ساحة الحوار والتعاون على مواجهة التحديات المشتركة التي نخوضها ضد الكفر كله والإستكبار كله.

والحمد لله رب العالمين وهو ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢ جمادي الأولى ١٤١٦ هـ
محمد حسين فضل الله

إفصاح للدكتور مصطفى الرافعي[1]

قرأت هذه الدراسة عن (الموحدين الدروز في الإسلام) لصاحب السماحة العلامة الشيخ مرسل نصر رئيس المحكمة الإستئنافية الدرزية العليا، مرة ومرة، وكنت أود قراءتها مرات لا لأنها تتناول البحث في أمور هي من جوهر إختصاصي فحسب، بل لما إشتملت عليه من آراء وأفكار خليقة بإمعان النظر، إن لجهة جدَّتها، وإن لجهة توافقها، أو عدم توافقها بالنسبة لما عرفناه نحن «أهل السنة» وتعلمناه من كتب أئمتنا وفقهائنا.

وليس من ريب بأن المؤلف الفاضل قد أبدى جهداً صابراً ومشكوراً في إعداد هذا السِفر القيِّم الذي وإن أتى في بعض فصوله خارجاً على مألوف المسلمين من أهل السنة أو الشيعة الإمامية، أو مغايراً لبعض الفروع الفقهية المطبقة حتى يومنا هذا عند هؤلاء وأؤلئك، فإنه «والحق يقال» كتاب جيد، جمع فأوعى عن الطائفة الدرزية الكريمة، من حيث نشأتها وعقائدها وعظماء رجالاتها مما يجهله الكثير من علماء المذاهب الإسلامية الأخرى «ومن جهل شيئاً عاداه». إضافة إلى ما حواه واحتواه هذا السفر النفيس من دعوة هادفة بناءة تنير الظلمات التي تكتنف حياتنا وتلف مجتمعاتنا عسى أن تنشأ عن هذا بوادر إنتفاضة صحيحة تقوِّم الإعوجاج، وتدحض زيف المفترين، وتزيح

---

(١) راجع نهاية الكتاب نبذة عن الدكتور مصطفى الرافعي.

أستار الضلالة، وتدفع بعجلة الإسلام الواحد، والموحِّد، المتَّحِد في طريق المجد والتقدم.

إن الدروز «والأصح تسميتهم الموحدون» مسلمون عرب.

هذا من حيث النشأة أما من حيث أحكامهم الشرعية في الأحوال الشخصية فإن قانون حقوق العائلة العثماني الصادر عام ١٩١٧ كان مطبقاً على مختلف أتباع المذاهب الإسلامية في لبنان «بما في ذلك أتباع مذهب الموحدين الدروز». كما كان معمولاً بهذا القانون على غير المسلمين في بعض الأحيان.

ولما استقلت الطوائف والمذاهب اللبنانية عن العثمانيين ووضع لكل مذهب قانون خاص ينظم أحوال أتباعه الشخصية غدت أحكام قرار حقوق العائلة العثماني مقصورة على المحاكم الشرعية السنية دون سواها.

أما المحاكم الشرعية الجعفرية فأخذت تطبق في أحوالها الشخصية مذهب الإمام جعفر الصادق، سادس أئمة أهل البيت منذ عام ١٩٢٦ وهو الذي أرسى قواعد المذهب ووضع فقهه.

وأما الموحدون الدروز فإن أول من وضع فقهاً لهم هو (حمزة بن علي بن أحمد) الذي ولد في إيران ثم قدم إلى مصر سنة ١٠١٤ ميلادية واتصل بالحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وكان يلقب بالهادي أو هادي المستجيبين في مذهبه الجديد. والمهم هنا أن نذكر أنه في ٢٤ شباط عام ١٩٤٨ صدر قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية والذي تنص المادة (١٧١) منه على وجوب إتِّباع المذهب الحنفي الذي تعتمد عليه المحاكم الشرعية السنية في كل ما لم يرد بشأنه نص في قانون الاحوال الشخصية الدرزية باستثناء مواضيع قليلة ومحددة تختلف أحكامها في قانون المذهب الدرزي عنها في المذهب الحنفي حصر أهمها سماحة الرئيس صاحب هذه الدراسة بما يلي:

١ ـ حرمة تعدد الزوجات.

٢ ـ عدم جواز الطلاق إلا أمام القاضي.

٣ ـ منع تزويج البنت القاصرة ما لم تبلغ سن الرشد الشرعي.

٤ ـ حرية الإيصاء.

٥ ـ إشتراطهم لصحة الزواج أن لا يقل نصاب الشهادة عن أربعة شهود.

٦ ـ القول بقاعدة التمثيل أو التنزيل.

وفي هذه المواضيع الفقهية الستة إذا كان الموحدون الدروز قد صاغوا أحكامهم في قانونهم الجديد بما يختلف عما هو قائم عند مذاهب أهل السنة أو المذهب الشيعي الإمامي الجعفري فإنهم قد بنوا إجتهادهم على ما فهموه من النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، والمجتهد في الإسلام إما مصيب مأجور وإما مخطيء معذور عملاً بالحديث النبوي الشريف «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

وأن الموحدين الدروز في ذهابهم إلى ما ذهبوا إليه واعتمدوه من أحكام في قانونهم الجديد للأحوال الشخصية عن طريق إعمال الفكر وإمعان النظر في مصادر التشريع الإسلامي لم يجانبوا الصواب ولم يخرجوا على حكم قطعي ثابت من الدين بالضرورة بل بنوا أحكامهم على اجتهاد مقبول وفقه جيِّد. علماً أنهم لم يتفردوا وحدهم في اعتماد ما ذهبوا إليه من أحكام بالنسبة للمواضيع الشرعية الآنفة الذكر بل أنه وجد بين أئمة المسلمين ولدى بعض مذاهبهم ما يوافق رأيهم بل ويؤيد وجهة نظرهم القائلة بتحريم تعدد الزوجات استناداً إلى أن العدل المشروط في الآية القرآنية متعذر حتى مع الحرص لقول الله تعالى: ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾، «ولن للنفي مع التأبيد على مذهب الزمخشري».

ومن ذهب إلى ما ذهب إليه الموحدون الدروز من فقهاء أهل السنة الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه الأستاذ عبد العزيز فهمي الذي أوضح وجهة نظره في مقولة مطولة ملخصها أن عدد مثنى وثلاث ورباع إنما ورد في الآية الكريمة على نسق النغم القرآني إذ لا يصح أن يقال: خماس وسداس وسباع إلخ. . . إلا لفظ عُشار على لغة شاذة.

أقول إن هذا الفقيه العالم قد فهم من آية التعدد ما معناه: تزوجوا ما شئتم من النساء شرط العدل بينهن بدليل قول الله سبحانه وتعالى بعد مثنى وثلاث ورباع ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ ثم قوله سبحانة في آية أخرى ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾، فكأن الله تعالى علّق إباحة تعدد الزوجات على أمن الجوْر ثم علق أمن الجور على مستحيل «وهو تعذر العدل بين الزوجات المتعددات» وما يترتب على المستحيل مستحيل، فيكون تعدد الزوجات في اجتهاده حراماً. وهذا أيضاً ما يراه المعتزلة «وهم فريق من المسلمين» فإنهم يقولون بحرمة تعدد الزوجات وأنه ليس للرجل أن يتزوج ثانية ما دامت الزوجة الأولى على عصمته.

وهذا ما ذكره أيضاً الأمير علي في كتابه (سر الإسلام) لأن هؤلاء جميعاً تتبعوا ما يجلبه التعدد من الزوجات من المفاسد والمضار وعرفوا أن من أصول الشريعة إعطاء الوسائل حكم الغايات في الأحكام، فرأوا أن آثار تعدد الزوجات كثيرة وسيئة لا يستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه.

وما يقال عن حرمة تعدد الزوجات عند الموحدين الدروز والأدلة التي استندوا إليها واعتمدوا عليها هو ما يقال أيضاً عن بقية المواضيع المثارة التي أوردناها آنفاً ويختلف إجتهاد الموحدين الدروز عن إجتهاد أهل السنة بشأنها.

من هذه المواضيع:

١ ـ عدم جواز الطلاق إلا أمام القاضي، ولعل في هذا الإجتهاد مصلحة للطرفين (الزوج والزوجة معاً) خصوصاً أن الطلاق نتيجة من نتائج الزواج، والزواج عقد مدني بحت في الإسلام، ومعلوم أن جميع العقود المدنية المبرمة بين الطرفين يكون إبطالها إما بالتراضي بين الطرفين المتعاقدين أو بحكم الحاكم علماً أن بعض الدول الإسلامية اليوم (كتونس) لا تسمح بإيقاع الطلاق من قبل الزوج إلا أمام القاضي، وفي هذا على ما أرى مصلحة إذ قد يستطيع القاضي أن يصلح بين الزوجين ويحول بين الزوج وبين إيقاع الطلاق حفظاً على بقاء الأسرة وسعادتها.

٢ ـ لا يجوز عند الموحدين الدروز لأحد أن يتزوج الصغيرة التي لم تتم الخامسة عشرة من عمرها (وهو البلوغ الشرعي) وحجتهم أن الفتاة في التاسعة من عمرها التي تبيح المحاكم السنية والجعفرية تزويجها إذا أذن به القاضي بعد مشاهدتها والتثبت من كون هيئتها محتملة فإن حجتهم أن أهلية هذه الفتاة للزواج تعني إعترافاً ضمنياً بأهليتها لإدارة شؤونها بنفسها، والتي تتحرر بنفسها ينبغي أن تتحرر بما لها وأن تصح بالتالي عقودها لأن من يملِك الأكثر يملك الأقل، وهذا خروج على القاعدة الأساسية التي تجعل من القاصر محجوراً عليه بحيث تمنع عليه إجراء أي تعاقد أو تصرّف.

وإن تسويغ تزويج الصغيرة في التاسعة من عمرها وعدم تسويغ تصرفاتها المالية فيه ـ كما ترى المحاكم المذهبية الدرزية ـ تناقض مع صريح الآية القرآنية التي تحتم البلوغ في قوله تعالى: ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ (سورة النساء: ٦).

وعلى هذا يقدَّر سن البلوغ الشرعي بخمسة عشرة سنة وما دون هذه السن فليس للولي ولا للقاضي أن يعقد زواج الفتاة عند الموحدين الدروز.

٣ ـ وبشأن الوصية وإباحتها عند الموحدين الدروز لوارث أو لغير وارث، بكامل التركة أو ببعضها، فإن تعليلهم لهذه الإباحة عملاً بقاعدة حرية

الإنسان المطلقة التصرّف بماله، هذا فيما لو أراد الإنسان الدرزي أن ينشيء وصية قبل زواجه. أما بعد زواجه فإذا أنجب ولداً أو أكثر تبطل وصيته، أما إذا لم يرزق أولاداً تبقى وصيته قائمة وتنفذ بعد أن يأخذ الزوج أو الزوجة من تركة المتوفي نصيبة المقرر في القرآن الكريم.

٤ ـ أما بالنسبة لإشتراطهم في صحة الزواج أن لا يقل نصاب الشهادة عن أربعة شهود فلا بأس في هذا لكونه زيادة في الإحتياط.

٥ ـ قاعدة التمثيل أو التنزيل وهي تعني أن الميت إذا لم يوصِ لفرع ولده الذي مات في حياته يستحق هذا الفرع مثل ما كان يستحقه ميراثاً في تركة أبيه كما لو كان حياً وهي ما يسمونها (بالوصية الواجبة).

وقد أعتمد هذه القاعدة كثير من البلاد العربية والإسلامية كمصر مثلاً التي أعتمدتها في المادة ٧٦ من قانون الوصية المصري وبات منذ عام ١٩٤٦ يطبق هذا القانون في نظام الإرث، وإن كان يخالف المذهب الحنفي الذي لم يقل أحد من فقهائه بالوصية الواجبة. والمستند القرآني للقائلين بقاعدة التنزيل أو الوصية الواجبة هو قول الله تعالى: ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين**﴾ (سورة البقرة: ١٨٠)؛

وهذا فهم جيد وإنصاف لأقرباء الميت غير الوارثين إذا اعتمدنا رأي القائلين بأن هذه الآية محكمة وغير منسوخة. هذه هي أهم الفوارق بين مذهب التوحيد وبقية المذاهب الإسلامية والتي بنيت على وجهات نظر إجتهادية لا تعدو أن تكون من قبيل الإجتهاد المباح الذي لا يكفر صاحبه ويكون فيه المجتهد أما مصيباً له أجران وأما مخطئاً له أجر الإجتهاد.

٦ ـ بقي موضوع التقمُّص:

وهو من المواضيع الذي كنت أتمنى على أخي العلاّمة صاحب هذه

الدراسة القيِّمة أن لا يقحمه في مؤلفه ضمن المواضيع الفقهية من عبادات وأحوال شخصية.

وعلى الرغم من ذلك فإن التقمص من المعتقدات القديمة التي عرفها المصريون القدماء وكذلك الهنود واليونان وهو إجتهاد لبعض علماء المسلمين من فقهاء وفلاسفة وأطباء مثل (ابن سينا) و (وابن قيّم الجوزية) و (الإمام الشعراني) الذي زعم أن الأرواح تتشكل بصور مختلفة، و(سعد التفتزاني) الذي أورد في كتابه (شرح العقائد النفسية) إنه ما من مذهب إلا وللتناسخ فيه قَدَم راسخ.

وكذلك الإمام الغزالي الذي يعتبر في كتابه (التهافت) أن البعث والتناسخ يرجعان إلى واحد، بمعنى أن الروح بعد مفارقتها البدن تنتقل إلى جسم آخر. ولم نسمع أن أحداً من أئمة المسلمين قال بتكفير هؤلاء الفلاسفة الحكماء والعلماء الأجلاء لمجرد أنهم قالوا ما قالوه.

ومهما يكن من شأن المقولات التي يتقوّلها المغرضون على الموحدين الدروز، والشبهات التي تحوم حول بعض معتقداتهم قصداً إلى إظهارهم بمظهر المبتعدين عن جوهر الإسلام والمجافين لشريعة القرآن حتى يبعدوهم عن محيطهم الإسلامي ويفضي بالتالي بنا وبهم الحال إلى التصارع والتقاتل والإنحلال.

بقي أن نشير حول فكرة التقمص إلى أن الموحدين الدروز ليسوا جميعاً يعتقدون بالتقمص، بل أن بعض المجتهدين في مذهب التوحيد الدرزي لا يعتقدون به، ومع هذا لم يقل أحد بأنهم خارجون من الملة بل ظل جميعهم من حيث العقيدة دروزاً موحدين خصوصاً وأن المبادىء الاساسية الثلاثة التي يقوم عليها مذهب التوحيد الدرزي، وهي صدق اللسان وحفظ الاخوان والتبرؤ من عبادة العدم والبهتان يلتقون بشأنها مع بقية المذاهب الإسلامية الأخرى لكونها من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخير، فإن الموحدين الدروز الذين يؤمنون بالله رباً، وبمحمد بن عبد الله رسولاً، وبالقرآن دستوراً، وكذلك يؤمنون بأن القيامة حق، والحساب حق، والجنة حق، والنار حق، فلن يبقى ثمة مجال لتكفيرهم والحكم عليهم بفساد عقيدتهم وخروجهم من ربقة الإسلام. بل يكون الخلاف بينهم وبين المذاهب الإسلامية الأخرى ليس خلافاً على جوهر الدين وأصوله، إنما هو خلاف في الفروع، وهو خلاف معتاد يقع للإختلاف في وسائل النظر وطرق الفهم. على أن هذا النوع من الإختلاف في الفروع لا يمكن دفعه لأنه واقع لا محالة ما دام للناس عقول تفكر وتنتج وتستنتج، وهو بالتالي إختلاف في المواضيع التي يسوغ فيها الإجتهاد وفقاً لما فهمه كل مجتهد من آية قرآنية أو حديث نبوي.

ولو كانت الفروع الفقهية يقينية كالأصول التي أوجب الإسلام على أتباعه التقيّد بها وأعتقادها كما وردت ـ (وهي حقائق لا تتغير بتغير الأزمان ولا تختلف باختلاف المصالح) ـ لم يبق للعقول مجال.

فلذلك جاءت أكثر أحكام الفقه الإسلامية ظنية وكثر فيها الإختلاف والترجيح وهنا يلعب الإجتهاد دوره لكونه عند الجميع مصدراً من مصادر التشريع أوجبه الله تعالى على القادرين عليه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ (سورة الحشر: ٢).

وقوله أيضاً: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ (سورة النساء: ٥٩) ومعنى الرد إلى الله وإلى الرسول هو أن ينظر المجتهد في الكتاب والسنة الأحكام المعللة ويستنبط الحكم على أساسها. وأما وجوب الإجتهاد من السنة فقول الرسول (ص) إجتهدوا فكل ميسّر لما خلق له وإذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين.

والسلام على من اتبع الهدى.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الطيبين.

وبعد:

تداعت الأمم، وحكامها إلى معاداة الإسلام، وسط هذه المتغيرات التي طرأت وتداخل بعضها ببعضها الآخر، وأسدل الضباب الإستكباري نفسه ليعطل الرؤية الصحيحة، لقضايانا الإسلامية والعربية، وبدأت تنهار الكرامة القومية أمام الضغوط العسكرية الاميركية والإسرائيلية وتسابق الحكام لمصافحة إسرائيل، وتقبيل يديها الملوثتين بالجرائم والآثام، ولولا قلة من المخلصين الذين وقفوا بوجه الضغوط لا يريدون إلا سلماً مشرفاً يحفظ الحقوق العربية في الأرض ويحافظ على الشموخ التاريخي لهذه الشعوب، ويصون الإسلام والمسلمين، لقرأنا الفاتحة عن روح هذه الأمة.

ومن سوء طالع هذا الشرق ابتلاؤه المزمن ببعض الفقهاء المسلمين الذين يتدافعون المسؤولية، ويتظاهرون بالإسلام ويتقيأون الفتاوى بناء للطلب وفي كل مناسبة فخانوا أمتهم بإثارة النعرات المذهبية، وفتح النوافذ على القبور التاريخية ليبعثوا منها رائحة الإقتتال بين أبناء الدين الواحد، خدمة لأسيادهم الحاكمين، فبات التشرذم سيد الموقف، وطغت الخصوصية على العمومية، وبات كل فريق مقتنعاً بما ورثه عن الآباء والأجداد، وبما سمعه

من بعض المجتهدين الضالين المضلين الذين قيل فيهم «ظاهرهم ديانة وباطنهم خيانة».

فوهنت قوة المسلمين، وكاد الإسلام يضيع في متاهات المادية المنحرفة وقل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولولا إرادة رب العالمين الذي قال: ﴿**انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (سورة الحجر: ٩) لغط العالم الإسلامي في سبات عميق.

تفتحت أفهام المخلصين في بعض الدول الإسلامية وتحملوا المشاق في سبيل الإسلام واتخذوا العرفان طريقاً للخلاص فأخلصوا لله، وكفاهم الله شر الأعداء، ونصرهم على القوم الضالين فكانت الثورة الإسلامية في إيران قدوة لصحوة المسلمين، في أماكن شتى من العالم.

وهذا الصحوة على قيمتها الدينية والمعنوية، تحتاج إلى صيانة دائمة داخلياً وخارجياً.

وقد تصادف بعض الثورات نجاحاً لامعاً في الظاهر سرعان ما تخبو نتيجة التراخي في التماسك الداخلي بين أبناء المذاهب بسبب خصوصيات يدفعونها إلى مستوى العموميات، وتطغي المصالح الضيقة على الأهداف المطلوبة من رب العباد، ويبدأ التناحر والتدابر.

ومن هنا بات من الواجب على كل مخلص ولأي مذهب انتمى أن يعمل في سبيل وحدة المسلمين، مع أن زمانة المرض تجعل المؤمن يتوجس خيفة مما يقدم عليه في القول والعمل سيما وأن الجهلة والمنافقين يسارعون إلى إتهامه في دينه ودنياه، ولكن قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠). يدفعنا إلى التغاضي عما يقال، وكل التضحيات رخيصة في سبيل شرف الهدف والمآل...

ومن هذا المنطلق أقدمت على تأليف هذا الكتاب، مختصراً عقيدة

المسلمين الموحدين، ومظهراً النقاط التي لا يؤمن بها الآخرون كحرية الإيصاء، وعدم إعادة المطلقة، وعدم تعدد الزوجات، والتقمص، وطريقة قبول المريدين في سلك الدين، ومفهوم التقية وقد بينت ما يعلمه الثقات ويتجاهله المرتدون من أبناء هذا المذهب وغيرهم، وقد أفصحت عما تكنه مسلكية الشيوخ الأطهار من أتباع سنة سيد المرسلين وحبيب رب العالمين:

وقد طمس المؤلفون وقائع التعامل مع الأركان الإسلامية الست، وراح بعضهم يتفلت من أتباعها أو بيانها ميلاً إلى الراحة من التكاليف والإباحة في العصيان، وقلما نجد مؤلفاً يتطرق إلى حقيقة اعتقاد الموحدين بأركان الإسلام، لأن الأكثرية، وهم من الجهلة الزمنين لا يقومون بأدائها، وليتهم يعلمون أن الإقرار بها دون العمل بموجبها هو فسق، وإما إنكارها فهو كفر ـ أعاذنا الله من ذلك ـ.

ومن العجب العجاب أن بعضهم ينكرها حتى لا يلتزم بتطبيقها فيكون قد ضل واضل وبصراحة فإن بعض المؤلفين من أبناء هذه الطائفة وغيرهم، قد ساهموا في التشويش على نقاوة مذهب التوحيد الإسلامي، إرضاء لجيوبهم ولعملائهم، فهم من تلك المدرسة التخريبية التي توغلت في مصر وبلاد الشام وتعاونوا مع المرتدين من بقية المذاهب الإسلامية للتجريح بالإسلام وتعاونوا مع الشيطان ونشروا مؤلفات لا تمت إلى الحقيقة بصلة وطعموها ببعض الحقائق كملبس الفضة على النحاس كل ذلك تحقيقاً لأهداف، لم تحقق في الحرب، فأرادوا تحقيقها في السلم.

ولا ننسى ما قام به الأعداء بالتعاون مع إسرائيل من نشر كتب مزورة للطعن بإسلام الموحدين (الدروز) (والعلويين) تحت أسماء مستعارة (مثل أبو موسى الحريري) كل ذلك بهدف تفتيت وحدة المسلمين، وإمعاناً في التصدي لمسيرة الإسلام، وهذا الداء الوبيل قد ابتليت به الشيعة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وابتلى به فرقها منذ إنشائها، ولا يزال بعض المتنفذين يصدرون من آن لآخر الفتاوى التي تكفر هذه الطائفة أو تلك، وكأن إحتلال

إسرائيل للأرض المقدسة وتدنيس المشركين للأراضي الإسلامية المباركة لا تعني لهم شيئاً، بل على العكس يصدرون الفتاوى التي تجيز السلم الإستسلامي، ويتمسكون تجاهلاً وخبثاً بقوله تعالى: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» دون أن يعلموا شروط الجنوح للسلم مع الأعداء. وتلك مصيبة، أو أنهم يعلمون ويكتمون، فالمصيبة أعظم.

وعلى أي حال فإن مشكلة التنوع المذهبي على مستوى علم الكلام أو علم الشريعة من خلال اختلاف علماء المسلمين في حقيقة التوحيد ـ من المشاكل المعقدة، ولكنها مع ذلك تدل على غنى الإسلام وعافيته، من وجهة نظر حسن النية عند الأفرقاء، وهي من الأمور المألوفة والتي تنطلق من القواعد الفكرية، التي تتشعب ونتعدد بتعدد أصحابها.

غير أن الإشكالات تقع أحياناً في الطريقة التي يتبعها البعض في تحريك الأفكار الخلافية في خط الواقع من خلال التعصب الأعمي الذي لا يطيق سماع الرأي الآخر بسبب التعقيدات الذاتية والفئوية والأحاسيس العدوانية، فاستغرق الجميع في الجزئيات وتجذر الخلاف بالنفوس، وبعد الفكر عن الموضوعية والعقلانية، وكل ذلك بحجة التعصب للإسلام ونسوا قوله تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** (سورة النساء: ٥٩). والجدير ذكره أن البعض يأخذون على أكثر أبناء الطائفة تقصيرهم في إقامة الشعائر الدينية، وسبب هذا القصور أو التقصير يعود إلى:

أولا: قيام الدولة العثمانية بهدم الجوامع التي كانت في قرى الموحدين... ومنعوهم من دخول المساجد والمدارس ودام هذا الأمر ردحاً طويلاً من الزمن.

ثانياً: استمرار الحروب بين الموحدين وأعدائهم الأتراك والفرنسيين كراً وفراً، مع ما يترافق ذلك من التجهيل والتكفير وتراخي البعض عن أداء الشعائر الدينية جهلاً أو خوفاً.

ثالثاً: صعوبة الإلتزام بسلك التوحيد الإسلامي حيث يفرض الشيوخ سلوكاً معيناً من المريدين مما أبعد الكثير عن الإلتزام المطلوب.

رابعاً: استغلال المثقفين الملحدين للعوامل السابقة ودعوتهم للتخلي عن الأركان الإسلامية لعدم أهميتها ويضربون الأمثال الواهية لإقناع العامة من الناس بعدم الصلاة كقولهم: أن أتباع موسى وعيسى عليهما السلام لا يصلون صلاة السنة ولا يصومون رمضان ولا يحجون ومع هذا فإن الإسلام يعترف بهم، وهذا يدل على أن الصلاة بزعمهم لا قيمة لها شكلاً وأساساً.

خامساً: قلة المرشدين وتدابر المسلمين وتكفير بعضهم للبعض الآخر مما يجعلهم يتحالفون مع أتباع النظريات المادية المختلفة ويغسلون أدمغتهم بما يخالف كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أئمته.

ورغم الظروف القاسية التي توالت على الموحدين (الدروز) منذ مئات السنين لم يستطع المستعمر والمتعاونون معه أن ينتزعهم من أصلهم العربي والإسلامي، وبقوا سيفاً للإسلام وحماة للثغور، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقرون بوجوب الصوم والصلاة والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلاً.

ونحن، جزء من الأمة العربية والإسلامية، والإجتهاد المباح عندنا هو الإجتهاد الذي يفرق بين الإجتهادات، ولا يفرق بين القلوب.

والمجتهد واحد من اثنين: مصيب مأجور، أو مخطىء معذور.

والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى.

(المؤلف)

الفصل الأول

الجذور الأولى في نشأة الموحدين

إن الموحدين يعتقدون بأن أجدادهم الأوائل كانوا من أتباع المدرسة التوحيدية في زمن النبي (ص)[1] والتي تضم الإمام علي (ع) وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر (رض) وكانوا يعتقدون أن الإمام علي (ع) قد أشارت إليه الأديان السابقة بالإضافة إلى كتاب الله وأقوال الرسول بأنه الوصي بعد الرسول وهو بمنزلة هارون من موسى وشمعون من عيسى:

وكان لهذه المدرسة الباع الطويل في تأويل بعض الآيات القرآنية، وكان للصحابي الجليل سلمان الفارسي (س) مقام خاص عند النبي (ص) وعلي (ع) إذا اعتبر من أهل البيت، كما كان لأتباعه إحترام في قلوب

---

(١) يعتقد الموحدون أن التوحيد موجود منذ وجود الكون، وإن جميع الأديان كانت بمثابة الحاضنات التي تربي فيها مفهوم التوحيد بما فيها اليهودية والمسيحية والإسلام، وقد تطور التوحيد إلى أن بلغ أشده واتضحت معالمه بعد فجر الإسلام، وقد جاء في قوله تعالى: **﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين﴾** (سورة القصص: ٥٣) إذن فالتوحيد الإسلامي امتداد للتوحيد الذي حضنته الديانات السابقة واكتمل نموه حتى رضيه الله تعالى لنا بقوله: **﴿اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾** (سورة المائدة: ٣)

المسلمين ويتناقل الموحدون عهداً لسلمان الفارسي عليه السلام وأهل بيته كتبه علي بن أبي طالب (ع) ومهره النبي (ص) وأبو بكر وعثمان (ر) وهذا نصه[1]:

«هذا كتاب لأهل بيت سلمان، إن لهم ذمة الله وذمتي على دمائهم وأموالهم في الأرض التي يقيمون فيها سهلها وجبلها مراعيها وعيونها، غير مظلومين ولا مضيق عليهم. من قرأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمؤمنات، فعليه أن يكرمهم ويبرهم ولا يتعرض لهم بالأذى والمكروه، وقد رفعت عنهم جز الناصية والجزية والحصر والعشر إلى سائر المؤن والكلف. ولهم أن يعطوا في كل سنة مائة حلة في شهر رجب ومائة في الأضحية، فقد استحق سلمان ذلك منا لأن فضل سلمان على كثير من المؤمنين، وأنزل في الوحي عليَّ، إن الجنة إلى سلمان أشوق من سلمان إلى الجنة، وهو ثقتي وأميني تقي نقي ناصح لرسول الله والمؤمنين، وسلمان منا أهل البيت، فلا يخالفن أحد هذه الوصية فيما أمرت به من الحفظ والبر لأهل بيت سلمان وذراريهم، ، ومن أسلم منهم ومن أقام على دينه، ومن خالف هذه الوصية فقد خالف الله ورسوله وعليه اللعنة إلى يوم الدين، ومن أكرمهم فقد أكرمني وله عند الله الثواب، ومن آذاهم فقد آذاني. وأنا خصمه يوم القيامة، جزاؤه نار جهنم وبرئت منه ذمتي والسلام عليكم.

كتب هذا العهد علي بن أبي طالب (ع) في رجب سنة تسع من الهجرة.

وعندما عاد النبي (ص) من حجة الوداع ونزل عند غدير خم فأخذ بيد علي (ع) وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه...

فكان من الطبيعي أن لا يفاجأ أتباع المدرسة التوحيدية بقوله عليه الصلاة والسلام لأن ذلك القول تكريس لما ورد في الكتاب، وتحقيق لما

(١) حمد الله مستوفي تاريخ كزيده ص ٢٣٠ ـ الصحابي الجليل سلمان الفارسي للدكتور مجيب المصري ص ١٢٣.

أشارت إليه الديانات بأن لكل نبي وصي، ووصي خاتم الأنبياء علي بن أبي طالب وقد قال عليه الصلاة والسلام: أنت وصيي وخليفتي ولا نبي بعدي.

فمات النبي (ص) وفجع المسلمون بغيابه عنهم وانقسموا إلى فئتين فئة المهاجرين الذين هاجروا مع النبي من مكة إلى المدينة وفئة الأنصار الذين رحبوا به وأيدوه، وادعى كل من الفريقين الحق، في خلافة الرسول، وكاد خطر الإنقسام يحط بكاهله على صدر المسلمين إلا أن عمر بن الخطاب أقدم بحزم وأخذ بيد أبي بكر الصديق وبايعه الحاضرون وقد عين أبو بكر عمراً خليفة له وفي أيامه لقب الخليفة بأمير المؤمنين.

وأما أتباع المدرسة التوحيدية لم يحركوا ساكناً باتجاه الخلافة لعدة أسباب منها:

أولاً: لأن الإمام علي (ع) سيف الإسلام سكت عن المعارضة فاعتبر موافقاً.

ثانياً: لأن الوصاية أو الولاية هي ولاية دينية همها الأول المحافظة على الإسلام وكتابه ودعائمه، بعد وفاة النبي.

ثالثاً: لأن الإمام علي يعلم جيداً بأن من تولى الخلافة بعد النبي يقدرونه ويعرفون منزلته السامية[1] ويعودون إليه في حل المعضلات.

---

(١) وقد روى الصديق (رض) حديث الخيمة حيث قال: «رأيت رسول الله خيم خيمة، وهو متكىء على قوس عربية، وفي الخيمة: علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين أنا مسلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب الولادة، ولا يبغضهم إلا شقي الجد ردىء الولادة».
«أورده عباس محمود العقاد في كتابه (عبقرية الإمام علي) ص ١١٩ طبع دار الهلال ـ مصر.
وقد أورد ابن أبي الحديد المعتزلي المذهب في شرح نهج البلاغة الجزء الثاني =

وأما عمر (رض) فقد أوكل إلى ستة من كبار الصحابة بينهم علي بن أبي طالب، اختيار واحد منهم، فحصل تباين بين المجتمعين وفاز عثمان بالخلافة.

وتغير الوضع في خلافة عثمان، واصبحت الولاية السياسية متلازمة مع الولاية الدينية سيما وأن اتساع الفتوحات الإسلامية وتدفق المال الناتج عنها وكثرة الداخلين في الإسلام من بين الشعوب المغلوبة قد أنشأت مشاكل لم يقدر الخليفة عثمان على حلها وقد ساءت الإدارة وقرب أهله بني أمية الذين استغلوه مما أثار استياء بعض الصحابة في مكة والمدينة.

واضطربت الولايات بسبب النزاع القبلي ونزح الفلاحون من أراضيهم وحصل ضيق وعدم استقرار.

وكان بعض الصحابة قد اثرى ثراء فاحشاً فجمع المال وسكن القصور واقتنى الجواري والعبيد، وهذا مغاير لسنة الرسول وسلوك الشيخين (أبي بكر وعمر)، وكانت سيرتهم، لا تزال حية في الأذهان، وقد أثار هذا التهافت على الجاه وملاذ الدنيا غضب المتدينين وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري (ر) أحد أعضاء المدرسة التوحيدية في زمن النبي (ص) وقد اشتهر في تعنيفه للمتسلطين والأغنياء. وكم كان ينكر على معاوية أشياء تخالف كتاب الله وسنة رسوله. فقد قال له عندما بنى الخضراء:

= عشر ص ٨٢ طبعة ثانية ٩٦٧ تحت عنوان (في ذكر ما ورد عن عمر من الثناء على علي).

قال: «وروى أبو بكر الأنباري عن أماليه أن علياً (ع) جلس إلى عمر في المسجد، وعنده ناس، فلما قام، عرض واحد بذكره، ونسبه إلى التيه والعجب، فقال عمر:

«حق لمن مثله أن يتيه، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد، اقضى الصحابة، وذو سابقتها، وذو شرفها...».

يا معاوية، إذا كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف.

وكان أبو ذر يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم... فما زال يعظ الناس حتى تكاثروا وأوجبوا على الأغنياء ليواسوا الفقراء من مالهم وقد شكا الأغنياء ما يلقون من الناس فخاف معاوية أن يفسد عليه أهل الشام فكتب إلى عثمان يطلب استدعاءه إلى المدينة.

وجاء أن النبي (ص) قال: «ما أقلت الغبراء ولا أطبقت الخضراء على ذي مهجة أصدق من أبي ذر».

وأما الخليفة عثمان فقد حمَّله كثير من الناس مسؤولية المتاعب والتجاوزات التي حصلت في عهده، وأعنف ما واجهه من الجنود الذين كانوا يقاسون شظف العيش في المعسكرات بينما العطاءات السخية تدفع من بيت المال إلى المقربين، فاندلعت الفتنة وقتل عثمان، وبويع علي بالخلافة، فقاومه منافساه طلحة والزبير بالسلاح في موقعة الجمل قرب البصرة ولكنهما هزما ونقل علي مركز الخلافة من المدينة إلى الكوفة.

وحاول علي أن يعزل معاوية الذي كان والياً على الشام من قبل عمر وبعده عثمان فرفض معاوية أن يقر لعلي بالخلافة وتطور الأمر إلى القتال، وكانت معركة صفين تسير لصالح علي لولا لجوء البعض إلى رفع المصاحف على رؤوس الحراب وارتفع النداء: لا حكم إلا لله، وظهرت البلبلة في صفوف علي بين مؤيد لوقف القتال وبين رافض له.

وعندما قبل علي التحكيم، آثار قراره هذا سخط الرافضين من أتباعه وخرجوا من صفوفه وسموا بالخوارج، وكان مقتل علي على يد أحدهم وهو يصلي في مسجد الكوفة في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة (٦٦١م) وانتهى

العمل السياسي في حدود المنهجية الدينية الإسلامية وبدأ عهد معاوية ووارثيه.

غير أن أتباع المدرسة التوحيدية مع شيعة الإمام علي استمروا في ولائهم لآل البيت وقاتلوا معهم لإحقاق الحق، وإعادته إلى نصابه إنسجاماً مع كتاب الله وسنة رسوله، وانتصاراً للولاية الحقة في آل البيت، وكانت المجازر الغادرة الرهيبة تنزل في آل البيت وأتباعهم ما ملأ بطون التاريخ من الفواجع والآلام.

على أي حال بقي التماسك بين أنصار أهل البيت وأتباع المدرسة التوحيدية لغاية وفاة الإمام جعفر الصادق (ع) ١٤٨ هـ، فأقر الأتباع بولاية ابنه إسماعيل وعرفوا باسم الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل واتبع الباقون من الشيعة إبنه موسى الكاظم (ع).

واستمر الإسماعيليون والموحدون في ولائهم لذرية إسماعيل لغاية الإمام الحاكم بأمر الله حيث توقف عنده الموحدون (الدروز) واستمر إخوانهم الإسماعيليون بإقرارهم بولاية علي الظاهر وذريته.

الفصل الثاني

الموحدون والأركان الستة

إن الموحدين «الدروز»[1] إنطلاقاً من إيمانهم بالإسلام ديناً وبمحمد (ص) رسولاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويقرون بوجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والولاية.

١ ـ الصلاة: لأنها **﴿كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾**[2] وهي عمود الدين ومن أهم العبادات ومن لم يقم بها إنكاراً لها فهو من الكافرين ومن يقصر عن أدائها مع إيمانه بوجوبها فهو من الفاسقين.

وقد يتساءل البعض لماذا لا يصلي الموحدون في الجوامع؟.

ولماذا لا يبنون الجوامع؟.

الجواب: إن بعض قرى الموحدين من الدروز كانت تضم المساجد منذ

---

(١) الموحدون يكرهون إطلاق تسمية الدروز عليهم، وهذا الاسم أطلق عليهم نسبة إلى محمد بن إسماعيل المعروف بنشتكين الدرزي «لع» (ونشتكين هذا كان في عصره كبعض الفقهاء في هذا العصر لا هم لهم إلا تفريق المسلمين، يتقيأون الفتاوى المغرضة بمناسبة ودون مناسبة خدمة لأسيادهم الصهاينة والمستسلمين لهم) وقد شوه نشتكين الدرزي المذكور دعوة التوحيد الإسلامية فقتله الموحدون ولا يزالون إلى يومنا هذا كلما ذكروه لعنوه ولعنوا أمثاله في كل عصر ومصر.

(٢) سورة النساء: ١٠٣.

زمن بعيد وبعد أن إحتلت تركيا البلاد العربية، وقادها حب السيطرة وأحكامها إلى استصدار فتاوى من ضعاف النفوس لتفرقة الأمة وتكفير الموحدين، فأقدمت على تهديم الجوامع في مناطق الموحدين الدروز وأقامت المجازر حتى في داخل الجوامع مما حدا بالأئمة آنذاك إلى مخاطبة المؤمنين لإقامة الصلاة في مجالسهم الخاصة خوفاً من غدر العثمانيين بهم إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولكن المدة طالت على هذه الحال وإقامة الصلاة في المجالس الخاصة أصبحت عادة والعادة كما نعلم إذا استمرت أصبحت عرفاً والعرف، إذا استمرَّ أصبح تقليداً يلصق خطأً بالعقيدة، وإن كان هذا الأمر يرفضه المتنورون من أبناء التوحيد، فهم ينادون بإقامة المساجد رغم الظروف المادية الصعبة، وبعض العقليات التي استفاقت على عرف معين لا تريد تغييره، وهي أن تبقى الصلاة في المجالس الخاصة والبيوت[١] والتي يعقبها المذاكرة في علوم القرآن الكريم وسنة رسوله (ص) وأقوال الأئمة رضوان الله عليهم. والصلاة عند الموحدين هي كالصلاة عند السنة والشيعة مع اختلاف بسيط لجهة شكليات الصلاة فوضع اليدين عند أسفل الصدر أو إسبالهما على جانبي الجسم فكلا الحالين مقبول عند الموحدين لأنهم يركزون على النية في إقامة الصلاة[٢]، وتركيز الفكر في مخاطبة رب العالمين أثناء القيام والركوع

---

(١) عملاً بقول الرسول (ص): صلوا في بيوتكم فإن خير الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة. انظر الجامع الصغير ج ٢ ص ٩٦ - ١٠٨. والموحدون يفضلون السرية في الصلاة عملاً بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «صلاة السر تزيد على الجهر بسبعين ضعفاً».

(٢) عندما كان الموحدون يجتمعون للصلاة في الجامع، فبعضهم يصلي صلاة الشيعة شكلاً ومضموناً، وبعضهم يصلي صلاة السنة، وبلغ الأمر بين الفريقين إلى الخلاف الشديد وحتى بدأوا يكفرون بعضهم بعضاً بسبب شكليات الصلاة والوضوء أيضاً والسبب في عدم توحيد الصلاة بينهم، إن بعض العشائر السنية دخلت الدعوة الفاطمية واستمرت بصلاتها وفقاً لشكليات الصلاة السنية، بينما الفريق الآخر كان على المذهب الشيعي وعندما استجاب لدعوة الفاطميين بقي =

والسجود، ويعتبرون أن الصلوات المفروضة يومياً خمس:

الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ومجموع ركعاتها سبع عشر ركعة، ويمكن تقصير الرباعية منها إلى النصف في حالات السفر والخوف، وكذلك صلاة الجمعة تختصر إلى ركعتين وبعد القيام بالصلاة كما ورد آنفاً يتحلق الموحدون للمذاكرة وهي تفسير كتاب الله وسنة رسوله ودراسة أقوال الأئمة إبتداء من مولانا علي بن أبي طالب مروراً بالباقرين عليهم السلام ولغاية الإمام الحاكم بأمر الله (ص) وهنا يكون للعرفان المنبثق من آيات الله البينات مجاله الواسع يأخذه كل من الحاضرين بمقدار فهمه، وصفاء نفسه.

ويتميز الموحدون بالصرامة في معاملة المريدين فهم لا يسمحون لهم بممارسة الصلاة إذا لم يكونوا ملتزمين بالأخلاق العالية، وصدق اللسان وحفظ الإخوان والبراءة من الأبالسة والطغيان والرضا والتسليم بكل مقدر في السر والحدثان.

فإن أتاهم زان أو سارق، أو كاذب أبعدوه من مجالس الصلاة والذكر فلا يقبلون منه صلاة حتى يتوب توبة نصوحاً يشهد له إخوانه بالإستقامة والاقالة مما أرتكبه من الأثم العظيم[1] وكثر من رجائه لشيوخه لقبوله في

= محافظاً على صلاة الشيعة شكلاً ومضموناً. وكان الجهل سيد الموقف كما هو الحال عند البعض في أيامنا ـ حيث يجعلون من الشكل قضية دونها قطع الرقاب. وتنبه أئمة التوحيد إلى هذا الأمر الخطير، وأصدروا فتواهم بشأن شكلية الصلاة، واعتبروا بأن الأصل في الصلاة النية والتوجه بقلب خاشع إلى خالق الأرض والسموات.

(١) لا تصح صلاة الآثم عند الموحدين إلا بعد التوبة، وللتوبة شروط قاسية لا يتسع المجال لذكرها، وقد روي في نهج البلاغة أن قائلاً قال بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام: استغفر الله فقال له: ثكلتك أمك أتدري ما الأستغفار؟.
إن الإستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما =

مجلسهم وحضور صلاتهم ومذاكرتهم العرفانية وكم كنا نطلب من حضرات المشايخ الأجلاء السماح للآثمين أن يتابعوا صلاة السنة على الأقل دون الغضب عليهم وإبعادهم نهائياً من ممارسة الطقوس، فيأتي الجواب أن الآثم لا يشرف بإقامة الصلاة إلا بعد أن يصبح طاهراً في ظاهره وباطنه.

وهذا التزمت أبعد الكثير من أبناء التوحيد عن ممارسة الصلاة، حتى شاع بين بعضهم أن لا لزوم لها، وقام المغرضون بتشجيعهم على ذلك وأخذوا يبررون التقصير بحجج واهية وأسباب بعيدة عن منطق الدين، وشيوخ المذهب يقيمون الصلاة بأوقاتها مع من يرون فيه الإستقامة والطهارة والعقيدة الصحيحة في الإسلام ورسوله وأئمته ولا يقبلون مجادلة أهل الجهل[1].

وشيوخ الموحدين يقتدون بمن سبقهم من علمائهم كالأمير السيد عبد الله التنوخي (قد) والسيد الشيخ الفاضل أبي هلال الذي كان يعامل المقصرين في صلاة السنة بالطرد من مجالس الصلاة والذكر، فمن قصر عن الصلاة يوماً يبعد عن المجالسة يوماً فإذا استمر التقصير يعتبر متخلفاً عن إقامة الصلاة المفروضة ويعتبر آثماً ويعامل على هذا الأساس معاملة قاسية في الهجر والإبعاد.

= مضى، الثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة، الرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول استغفر الله.

وهكذا فإن شيوخ المذهب الأتقياء لا يكتفون من الآثم بالإستغفار السطحي دون ندامة وعزم على عدم العودة إلى الذنب أبداً وإرجاع الحقوق للخالق، والمخلوق، وهكذا فإننا نستغفر الله من استغفارنا...

(١) الجهل في منطق الموحدين... من جهل إمام الزمان وتعاليم القرآن.

٢ ـ **الصوم**: يعتقد الموحدون أنه من أركان الإسلام وهو واجب على كل مكلف لا يحول مانع من القيام به، إمتثالاً لقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**. ويعتقدون بقول رسول الله (ص) في شهر رمضان أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره الإجابة والعتق من النار والصيام شرعاً هو الإمساك عن المفطرات من أول الفجر إلى المغرب الشرعي مع نية القربة والتوبة ويجب أن يكون الصيام صيانة للنفس عما يحرمه الله من الشهوات والآثام الظاهرة والباطنة[١]، ويحث شيوخ المذهب الاتباع على الصيام مرددين ما روي عن عمر بن شمر جابر عن ابن جعفر عليه السلام أنه قال: يا جابر من دخل عليه شهر رمضان فصام نهاره وقام ورداً من ليله وحفظ فرجه ولسانه وغض بصره وكف أذاه خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه، فقلت له: جعلت فداك ما أحسن هذا من حديث!.

---

(١) كالشرك بالله، وسوء النية، والغفلة عن ذكر الله، وزنا الفكر، والحقد والحسد... والموحدون يركزون على الصون مع الصيام أي صون الجوارح عن إرتكاب الآثام، ويعتبرون الصيام صوماً للجسد، وصوماً للنفس عملاً بقول الإمام علي عليه السلام: «صوم الجسد الإمساك عن الأغذية بإرادة واختيار خوفاً من العقاب ورغبة في الثواب والأجر، وصوم النفس إمساك الحواس الخمس عن سائر المآثم وخلو القلب من جميع أسباب الشر». وقوله عليه السلام: «صيام القلب عن الفكر في الآثام، أفضل من صيام البطن عن الطعام».

وقوله (ع): صوم القلب خير من صيام اللسان وصيام اللسان خير من صيام البطن وقوله صوم النفس عن لذات الدنيا أنفع الصيام.

وهكذا فإن شيوخ المذهب يحثون الصائمين على صيانة أنفسهم وجوارحهم من الآثام الظاهرة والباطنة، وإلاّ فإن الصيام دون اجتناب المحارم غير مقبول شرعاً وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر».

وقالت سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السُلام: «ما يصنع الصائم بصيامه إذا لم يصن لسانه وسمعه وبصره وجوارحه؟.

قال: ما أشد هذا من شرط!.

٣ ـ **الزكاة**: يعتقد الموحدون أنه من الأركان التي بني عليها الإسلام غير أن تغيير الأزمان وفساد الحكام جعل أبناء المذهب يتراخون في تطبيق هذا الركن وقد ترك الأمر على سجية القادرين الذين يقدمون ما تسمح به أنفسهم زكاة عن أموالهم لبعض جهات البر. وكان بعضهم يتبنى الخمس[(١)].

٤ ـ **الحج**: وهو واجب على كل مكلف مستطيع، لقوله تعالى: **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾**[(٢)].

وكان كثير من الموحدين يتوافدون على الحج المبارك إلا أنه في سنة ١٧٠٣م قتل من الحجاج الموحدين ٦٢ حاجاً لا لشيء ولكن تنفيذاً لمؤمرات التعصب والتكفير ومنذ ذلك الوقت أوقف الخوف الموحدين من الحج، ولا يزال بعض ولاة الأمر يمنعون علينا الحج فقد تقدمت بطلب من رئاسة الوزارة سنة ١٩٩١ لأقوم بفريضة الحج فرفض طلبي ضمناً دون مبرر شرعي. علماً بأن بعض أبناء جبل العرب في سوريا يقومون سنوياً بالحج أسوة بإخوانهم المسلمين.

وكان بودي أن لا أذكر ما حصل بالنسبة لي ولكن أردت بيان استمرار المؤامرة لفصل طائفة الموحدين الدروز عن واقعها الإسلامي.

٥ ـ **الجهاد**: وهو من أركان الإسلام[(٣)]، وواجب القيام به للدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين، وعن عرضهم وأرضهم ومن هذا المنطلق كان للموحدين قصب السبق في الثورات والقتال في سبيل عروبتهم وإسلامهم وقد

---

(١) عملاً بقوله تعالى: **﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربي...﴾**(سورة الأنفال: ٤١).

(٢) (سورة آل عمران: ٩٧).

(٣) البعض يعتبر الجهاد من توابع الولاية ولوازمها.

سموا بحق سيف الإسلام، لأنهم يعملون بوحي عقيدتهم في الجهاد دون تباطؤ أو تواكل، ويؤمنون بقول الإمام علي عليه السلام: «الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى». وقوله (ع): «الجهاد عماد الدين ومنهاج السعداء».

والجهاد عندهم ظاهره مجاهدة العدو وهو فرض على جميع الأمة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب... وباطنه مجاهدة الإنسان نفسه عن معاصي الله وهو من أعظم الجهاد[1]، وكذلك مجاهدة من يلي السلطة من الكفار عملاً بقوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين**﴾ (سورة التوبة: ٧٣).

٦ ـ **الولاية**: وهي الركن السادس الذي يعتقده الموحدون ويعتقدون أن لا إسلام بدون ولاية، وهذه الفكرة قد انقلبت عليهم نقمة من قبل بعض المتطرفين الذين رأوا في هذا الاعتقاد تكفيراً لهم مع أن الشيعة بجميع فرقها تؤمن بذلك وقد انفجر الحقد عندما أعلن في زمن الإمام الحاكم (ع) أثناء الآذان بأن علياً ولي الله وكان أول آذان يتضمن هذه العبارة، فتقولوا عليه الأقاويل البشعة واعتبروه قد أدخل البدع في الدين الإسلامي مع أن هذه العبارة قيلت استحساناً وليست وجوبية غير أن منظار المتزمتين والمغرضين في كل عصر ومصر يقلب الأمور إلى ما تهواه أنفسهم ونفوس أسيادهم.

ومع أن الولاية ثابتة للنبي (ص) وللأئمة المعصومين (ع) تكويناً وتشريعاً وإن العقل يحكم بوجوب الطاعة لهم وعدم مخالفتهم فطاعتهم من طاعة الله ومخالفتهم من مخالفته وقد جاء قوله الكريم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ (سورة النساء: ٥٩).

---

(١) وقد جاء على لسان علي عليه السلام قوله: «جهاد النفس مهر الجنة».
وقوله: جاهد نفسك وقدم توبتك، تفز بطاعة ربك.
وقوله: مجاهدة النفس شيمة النبلاء.

أضف إلى ذلك فإن كثيراً من الآيات التي تثبت الولاية لرسول الله وبعض الأنبياء والأئمة المعصومين (ع) ونذكر بعضها.

وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: **﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين﴾** (سورة البقرة: ١٢٤).

وقال تعالى: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾** (سورة ص: ٢٦).

وقال في سورة الأحزاب في نبينا (ص):

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ (سورة الأحزاب: ٦).

في الآية الأولى جاء عن جعفر الصادق (ع) إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً. وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: «إني جاعلك للناس إماماً». قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ومن ذريتي؟.

فما أوردناه من قوله تعالى يظهر أهمية الإمامة، وإنها عهد من الله بينه وبين من اصطفاه لذلك، مما يقتضي الطاعة له وعدم مخالفته.

ويستفاد من الآية الثانية بأن الله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه داود أن يحكم بين الناس بعدما جعله خليفة لنفسه. فصار ولياً على الناس، ويقتضي طاعته لأن في طاعته طاعة لله، ويتبين من الآية الثالثة بأن النبي عليه الصلاة والسلام أولى من المؤمنين بأنفسهم وأن عليهم بحكم الولاية أن يؤثروا إرادته على إرادتهم، وهو أعلم بمصلحتهم ومصلحة المجتمع فعليهم أن يطيعوه

بكل ما أمر به على صعيد الفرد والجماعة وعليهم أن يعتبروا حكمه أنفذ من حكم بعضهم على بعض.

وإنطلاقاً من الولاية المطلقة لرسول الله (ص) وبصفته أولى من المؤمنين بأنفسهم وهو أب لهم أطلق عبارته الشهيرة: من كنت مولاه فعلي مولاه، وقد جاء هذا في خبر زيد بن أرقم عنه (ص) في قصة الغدير: «أيها الناس، إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان اتبعتموهما، وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي ثم قال أتعلمون إني أولى بالمؤمنين من أنفسهم في ثلاث مرات، قالوا، نعم: فقال رسول الله (ص) : «من كنت مولاه فعلي مولاه.

وهذا المضمون تواتر عند السنة والشيعة.

وبعد إعلان رسول الله (ص) الولاية لعلي (ع) سارع قادة التوحيد الإسلامي ومن بينهم سلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري والمقداد إلى الإلتزام بقوله (ص) وأعلنوا ولاءهم لعلي (ع) فدخل أتباعهم الموحدون تحت راية علي (ع) وذريته من بعده عاملين كشيعة موحدة لغاية الإمام جعفر الصادق (ع) وبعدها جعلوا الإمامة في ولده إسماعيل واستمروا موحدّين مع الإسماعيلية لغاية الإمام الحاكم بأمر الله حيث توقف الموحدون (الدروز) عنده وتابع الإسماعيليون الإمامة بالظاهر والمستنصر وما بعدهما من الأئمة ولغاية الإمام الحاضر كريم خان.

ومع أن الموحدين (الدروز) يؤمنون بأن الولاية قد انتقلت من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى وصيه ووزيره علي بأمر من رب العالمين تضمنه كتاب الله وأقوال النبي (ص) إلا أن هذه الولاية هي ولاية دينية وليست بالضرورة أن تكون زمنية أيضاً، لأن الولاية الدينية وإمارة المؤمنين والمحافظة على الإسلام تشريعاً وتأويلاً يستغرق وقت أمير المؤمنين ومن هذا المنطلق يعتبر أن علياً قد وافق على بيعة أبي بكر وعمر (رض) وهو في مركز القوة الدينية والزمنية، والحكمة من ذلك أنه أراد حفظ الإسلام بتفسيره وتأويله ليكون نبراساً للأئمة المعصومين من بعده، ولكن في عهد الخليفة

عثمان بن عفان وبعد موته طالب بحقه وكان ما كان من الحروب مع معاوية ومن خذلان بعض المسلمين لوصي رسول الله وأبنائه من بعده.

وكان الإمام الحاكم بأمر الله، بغية توحيد المسلمين تحت لواء الدولة الفاطمية قد جاهد ضد التعصب وجعل المالكية. يدرسون مذهبهم بدار الحكمة، وقد منع الحاكم سب السلف ممن تقدم على علي (ع) وأصدر سجلاً ليقرأ في كل مكان على جميع الناس في رمضان ٣٩٨ هذا نصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من عبد الله ووليه أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى كل حاضر وباد...

أما بعد...

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين (لا إكراه في الدين) مضى أمس بما فيه وجاء اليوم بما يقتضيه، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد بينهم مستقبح إلا من شهد الشهادتين أحق أن لا تنفك له عروة، ولا ترهق له قوة، بحي على خير العمل يؤذن المؤذنون ولا يؤذنون، ويخمس المخمسون ويربع المربعون في الصلاة على الجنائز، ولا يشتم السلف ولا يبغي الخالف على من قبله خلف، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون، معشر المؤمنين، نحن الأئمة وأنتم الأمة، عليكم أنفسكم، ولا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون. والحمد لله رب العالمين وصلواته على رسوله محمد وآله الأكرمين(١).

ونلاحظ من نص السجل أن الإمام الحاكم (ع) كان يدعو لعدم التعصب لما في ذلك من إحراج واخراج وكان يجاهد في الصلاح والإصلاح بين الناس

(١) الحاكم بأمر الله د. عارف تامر ص ٩٠ رسائل الحاكم لدى طائفة الموحدين.

ومنع شتم السلف حفاظاً على وحدة المسلمين ولم شملهم.

هذه هي عقيدتنا نحن المسلمين الموحدين، وهذا ما يتمسك به شيوخنا الأجلاء المتنورون، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يرضون عن الإسلام بديلاً.

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1] والمنكر لهذه الأركان فهو من الكافرين ومصيره جهنم وبئس المصير ونسأل الله أن يلهم المقصرين الصواب ونستحثهم على القيام بما فرضه الله تعالى من الصوم والصلاة والزكاة والحج ولا ينسوا إمام زمانهم فمن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

وكل من ينكر هذه الدعائم فهو من المرتدين والمشركين والعاملين على تخريب الإسلام والمسلمين، خدمة للصهيونية والإستكبار العالمي ولإذلال هذه الأمة ونطلب من الله أن يسامح من افترى علينا، ونسأله أن يلهمه الصواب، وإذا استمر المغرضون على عنادهم وذمهم لأبناء التوحيد فنسأل الله أن يعاملهم بعدله، ويزيد أجر الأبرياء إنه سميع مجيب.

---

(١) (سورة آل عمران: ٨٥).

الفصل الثالث

فرائض الوضوء

يقتضي أن تسبق النية في الوضوء، وإنها بقصد الطاعة والإمتثال لأمر الله تعالى، غير أنهم يختلفون في شكل الوضوء بعض الشيء عن رأي السنة والجعفرية لجهة الأعضاء التي يطالها الوضوء والتطهير فهم يبدأون بغسل اليدين أولاً إلى المرفقين دون التقيد بالإبتداء بالمرفقين والنكس أو الإبتداء بالأصابع ولغاية المرفقين ولكن يُستحب الإبتداء باليد اليمنى.

ثم يبدأون بغسل الوجه حتى تحت الذقن ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن والبدء من الأعلى، ويصح مسح الرأس جزئياً أو كلياً. وبعد ذلك ينهون الوضوء بغسل الرجلين من رؤوس الأصابع إلى الكعبين ويجوز تقديم اليسرى على اليمنى، وإن كان ماء الوضوء قليلاً فيكتفى بالمسح من رؤوس الأصابع ولغاية الكعبين.

وبعض المذاهب كالإمامية والشافعية والحنابلة يشترطون لصحة الوضوء البدء بالوجه فاليدين، فالرأس فالرجلين، عملاً بقول الآية رقم ٦ من سورة المائدة.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾[١].

---

(١) بعض الموحدين يلتزمون بحرفية هذه الآية.

غير أن الحنفية والمالكية أجازوا الإبتداء بالرجلين والإنتهاء بالوجه أما الجاري لدى شيوخ مذهب الموحدين فإنهم يغسلون الأيدي أولاً: لماذا. . .؟ لأن اليد هي الآلة أو الوسيلة التي تقوم بتطهير بقية الأعضاء، إذن يجب أن تكون طاهرة أولاً إذ كيف يتصور الإنسان أن يغسل وجهه بيدين غير مغسولتين وطاهرتين، ثم يبدأ بتطهير بقية الأعضاء بحسب ما أوردناه آنفاً، واعتبروا أن الترتيب الوارد في الآية المذكورة هو ترتيب توضيحي لمعرفة الأعضاء التي يجب أن يطالها الوضوء السابق للصلاة وليس ترتيباً أولوياً.

ويحبذون المتابعة بين غسل الأعضاء ويكرهون التفريق دون عذر.

وأما شروط الوضوء ومستحباته والشك واليقين في الحد من الطهارة فيتبعون أقوال الأئمة من السنة والإمامية، وعند التناقض يأخذون بما يوافق العقل في حدود الزمان والمكان والإمكان. ووضوء السكران غير مقبول، وكذلك صلاته، فيحرم من الصلاة، حتى يعود عن اثمه ويبعد عن مجالس الذكر، ولا يسمح له بدخولها حتى يستقيم أمره ويرتدع نهائياً عن تناول المسكرات قليلها وكثيرها، وحتى التدخين، ويشهد له أبناء جلدته بأنه لم يزاول شرب الخمر أو التدخين، وإنه ملتزم بآداب الدين من صدق اللسان وصحة الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله وأئمة مذهبه[1].

---

(١) حصل خلاف بين بعض المجتهدين حول صحة وضوء امرىء توضأ بقصد الصلاة وهو في طريقه إليها زنى بدابة أو بميت، فهل على هذا الإنسان أن يعيد وضؤه أم لا؟. وكثرت الإجتهادات حول هذا الموضوع فبعضهم أوجب الغسل وبعضهم سمح له بالصلاة دون غسل. . . إلخ غير أن مثل هذه الحالة لو حصلت مع أحد من أبناء مذهب التوحيد فإنه يطرد من مجالس: أهل الذكر، ويمنع من الصلاة مدة ثلاث سنوات أو أكثر ولا تقبل له قبل ذلك صلاة ولا وضوء ويهجره الخاصة والعامة إلى أن يتوب ويقبله شيخه بعد تأنيبه وتعزيزه.

التيــمم

إن التيمم لدى الموحدين لا يتوجب إلا إذا كان ثمة مرض أو سفر أو غير ذلك مما حدد في الآية ٦ من سورة المائدة: ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا**﴾ فالآية توضح بأن التيمم لا يكون بمجرد فقد الماء بل يجب أن يكون مقترناً بمرض أو سفر ـ وبالتالي فإن الصحيح الحاضر الذي لم يجد ماء للوضوء والطهارة فلا يجب عليه الصلاة، إذ لا صلاة بدون طهور ولكن يبقى له أن يقرأ الفاتحة وبعض السور القرآنية بذهن حاضر ليبقى على صلة مع خالقه أثناء الصلاة دون القيام بالركوع والسجود.

وإذا وجد قليلاً من الماء فيمكنه أن يستعمل ما تيسر له في تطهير اليدين ويمسح الوجه والشعر والقدمين وذلك مترافقاً مع نية الوضوء.

وإذا كان استعمال الماء يسبب ضرراً صحياً، بصورة أكيدة أو محتملة فيمكن الموحد أن يلجأ إلى التيمم.

والتيمم لا يكون إلا بتراب طاهر لم تخالطه نجاسة أو رمل نظيف والتيمم يجب أن يطال اليدين والوجه والرأس.

وعلى الموحد أن يجتهد في إيجاد الماء للوضوء ولا يتهاون في إيجاده اعتماداً على التيمم.

وهكذا فإن الوضوء والتيمم لا يصح إلا للموحد الذي يلتزم بآداب

الدين من الصدق والإستقامة والإيمان وعدم تعاطي المسكرات على أنواعها قليلها وكثيرها، وحتى التدخين الذي يعتبره الموحدون آفة الدنيا والدين. وأن يكون ممن قبله شيخه في مجالس الصلاة والذكر ويداوم على الصلاة في أوقاتها وأن يتزيا بزي المؤمنين.

وبسبب هذا التضييق أصبحت الصلاة محصورة بالشيوخ الأتقياء، وقد بدأ بعض الشباب المثقف يتحرر من القيود ويقومون بالصلاة مع الإلتزام بالحد الأدنى مما يطلبه الشيوخ كالصدق والإيمان والعفة وعدم تعاطي المسكرات.

عند الموحدين معان للصلاة والصوم والطهارة وغير ذلك من أركان الإسلام تكمل المعنى الظاهر وتلازمه ملازمة الروح للجسم[(١)].

وكما أن لظاهر الصلاة آداباً يقتضي رعايتها وإلا بطلت الصلاة الصورية أو نقصت فإن لباطن الصلاة آداباً قلبية باطنية يقتضي مراعاتها وإلا كانت ناقصة أو باطلة.

ولا يكون للمصلي نصيب من السر الإلَهي، المودع في صلاة أهل المعرفة وأصحاب القلوب الذي هو قرة عين لأرباب السلوك، إلا إذا راقب الآداب الباطنية وأهتم بها.

والموحدون يعتبرون أن أعلى مراتب الخسران والضرر الاقتناع بصورة الصلاة وقشورها الظاهرين، دون المجاهدة للإقتراب من كمالاتها الباطنية ومنها السعادة الأبدية بالوصول إلى العتاب القدسية للمحبوب المطلق.

والموحدون ليسوا وحدهم في هذا التصور الباطني للصلاة فنقرأ مثلاً للإمام الخميني (قد) في كتابه «الآداب المعنوية للصلاة».

---

(١) إن معاني الصوم والصلاة والطهارة رافقت الموحدين منذ زمن الفاطميين، وذلك اعتماداً على ما ورد في كتاب دعائم الإسلام للفاطمي النعمان وما تضمن من أقوال للإمام جعفر الصادق عليه السلام، وتأويله.

. . . «ولكن لا بد من التنبيه عليه ها هنا أن من أعلى مراتب الخسران والضرر الإقتناع بصورة الصلاة وقشرها والحرمان من بركاتها وكمالاتها الباطنية التي توجب السعادات الأبدية بل إنها توجب جوار رب العزة ومرقاة للعروج إلى مقام الوصول بوصل المحبوب المطلق الذي هو قرة عين سيد الرسل (ص) ويا لها من حسرة تعجز عقولنا عن إدراكها ولا ندركها إلا بعد الخروج من هذه النشأة والورود في المحاسبة الإلّهية، وما دمنا في حجاب عالم الملك وضرر الطبيعة فإننا لا نقدر أن ندرك شيئاً من ذاك العالم (وإنما مددنا أيدينا إلى النار من مكان بعيد) فأي حسرة وندامة وضرر وخسران أعلى من أن ما هو وسيلة للكمال والسعادة للإنسان ودواء للآلام والنقائص القلبية، وهو في الحقيقة الصورة الكمالية الإنسانية يصير بحيث بعدما اتعب الإنسان نفسه في سبيله أربعين سنة أو خمسين سنة لا يستفيد منه فائدة روحانية وليس هذا فحسب بل صار سبباً للكدورات القلبية والحجب الظلمانية. . .

أيها العزيز شمر ذيل الهمة وأبسط يد الطلب واصلح حالاتك مهما تتحمل من التعب والمشقة وحصل الشرائط الروحية لصلاة أهل المعرفة واستفد من هذا المعجون الإلّهي».

والموحدون على درجات متفاوتة في الصلاة وآدابها ومقياس ذلك قوة التوجه والذكر على عز الربوبية وذل العبودية، فبقدر الإبتعاد عن الانية والأنانية تكون درجة الموحد أعلى من سواه ممن أحب نفسه وآثر أنانيته، وحب النفس من أعظم الحجب وأظلمها.

فالنية التي تتقدم الصلاة يجب أن تتوجه إلى خرق حجاب النفس والذي هو الشرط الأساسي لتكون الصلاة الروحية ورياضتها مقبولة وغير باطلة.

ومن هنا نجد أن كثيراً من الشباب والجهلة قد استقر رأيهم خطأ، على الصلاة الروحية تاركين باب محرابها وهي الصلاة الشكلية ولم يعلموا أن العبادة لا تقوم إلا بظاهر الصلاة وباطنها معاً.

وعند الموحدين أسرار عرفانية للصلاة بدأ من النية حتى التشهد والتسليم، ويعتبرون الصلاة الظاهرة مثلاً يدل على ممثول فيجب القيام بالمثل عملاً بكتاب الله ليتحقق الممثول الذي به تصفى النفوس وتقف بحضرة باريها.

ويعتقدون بأن النفس لا تقف بحضرة باريها إلا بعد أن تغسل قدميها بدم القلب أي إنتزاع الشهوات منها الذي يعادل قطع شرايين القلب.

وعلى أي حال فإن صلاة المريد السالك تتميز عن صلاة الواصل العاشق فصلاة الأول هي الصلاة المعروفة. وعليه اتقانها والإنضباط في أدائها كي ترتد عليه نوراً يهتدي به في ظلمات النفس، وحجباتها الكثيفة والناتجة من العجب والكبرياء والأنانية والانية.

وأما صلاة الواصلين فتتمثل بعد القيام بالرسوم بالإنجذاب الجزئي أو الكلي إلى المطلق والفناء فيه بعد أن ينسى نفسه وينسى أنه ينسى، ولا أريد أن أزيد حتى لا نتعرض لإتهام أو إستفهام فمن لم يذق الحلو في حياته لا يمكن أن تصف له طعم العسل.

والطهارة عند الموحدين بالنسبة للسالكين تطهير الأعضاء من الأنجاس والأحداث بنية الاقدام على الصلاة، وبالنسبة للمتعمقين تعني تنزيه النفس عن القذارات المعنوية والأخلاق الذميمة، وحتى تطهير الأفكار من الوساوس الشيطانية إلى غير ذلك من الطهارات، وعند الموحدين للوضوء سر، وللركوع سر وللسجود وللتشهد وغير ذلك من حركات الصلاة سر، وليس هم وحدهم القائلين بهذه الأسرار، فمن أراد الإستزادة فعليه بكتاب سر الصلاة أو صلاة العارفين لسماحة الإمام الخميني (رض) وكتاب الآداب المعنوية للصلاة والتي يلتقي مضمونها مع تقاليد الموحدين العارفين والأتقياء الواصلين فالتوحيد نور بسيط يضيىء القلوب الفارغة من الغل والحسد والحقد والتكبر ومع بساطته وسهولته فهو صعب مستصعب لا يحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو مؤمن امتحن قلبه بالإيمان.

الفصل الرابع

الفوارق في مذهب التوحيد

وبعد يتبادر إلى ذهن القارىء الكريم السؤال الآتي: ما هي الفوارق بين مذهب التوحيد وبقية المذاهب الإسلامية؟.

فالجواب: على ذلك أن ثمة فوارق عدة وهي:

١ ـ إعتماد الزوجة الواحدة.

٢ ـ عدم إعادة المطلقة.

٣ ـ حرية الإيصاء.

٤ ـ «التقمص إجتهاداً»..

أولاً: إعتماد الزوجة الواحدة:

عملاً بقول الإمام المعز (س) حيث قال: «الزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن فينغص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم، ويضعف تمايزكم، فحسب الرجل الواحد الواحدة».

وكان قوله عليه السلام سنداً إلى عدم إمكانية العدل بين النساء وقد اعتبر أن آية التعدد جاءت حلاً لمشكلة وليست إستجابة لشهوة فجاء قوله تعالى:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾.

وجاء في موضع آخر: **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾**.

فنلاحظ أن آية التعدد جاءت بعد القول وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لأن القسط في اليتامى تعني العدل في معاملتهم وهذا لم يتحقق بالنظر لكثرتهم إذ كان ثمة تمايز وإجحاف في معاملة بعضهم فأمر الله بتعدد الزوجات بقصد القسط في اليتامى وذكر المحظور الذي هو موجود بالفعل وهو قوله جل وعلا: **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾**.

ثم جاء قوله تعالى بعد التدرج الذي قرأناه آنفاً، جازماً: **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾**.

أضف إلى ذلك أن تعدد النساء يؤدي إلى تعدد الأولاد وكثرتهم ونشوب نزاع التحاسد والتباغض بين الضرائر وأولادهن فالإخوة الأشقاء يتقاتلون فكيف بأبناء العلات الذين هم من أب واحد وأمهات شتى؟ ولنا في التاريخ أمثال عدة من بينها خلاف الأمين والمأمون في الدولة العباسية، وقد تنبهت بعض الدول الإسلامية كتونس مثلاً وأصدرت قانوناً تحرم فيه تعدد الزوجات.

وكذلك زواج المتعة محظور عند الموحدين الدروز.

وفي نظام الأحوال الشخصية الدرزية تكرست تقاليد الموحدين واجتهاداتهم في نصوص صريحة وواضحة فتقرأ ـ لجهة الأهلية في الزواج نص المادة الأولى:

«يحوز الخاطب على أهلية الزواج باتمامه الثامنة عشر والمخطوبة بإتمامها السابعة عشر من عمرها».

وكذلك منع زواج القاصرة التي لم تتم الخامسة عشرة من عمرها حتى ولو كانت بالغة وأذن وليها فقد نصت الفقرة الأولى من المادة الخامسة من قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية ما يلي:

«لا يجوز لأحد أصلاً أن يزوج الصغير الذي لم يتم السادسة عشرة والصغيرة التي لم تتم الخامسة عشرة».

وبالتالي فإن زواج الصغيرة التي يقل عمرها عن الخامسة عشرة غير مقبول شرعاً وتقليداً وقانوناً.

ثانياً: عدم إعادة المطلقة:

إن قانون الأحوال الشخصية لطائفة الموحدين الدروز ينص على أن عقد الزواج لا ينحل إلا بحكم من قاضي المذهب[1] ولا يجوز لأحد أن يعيد مطلقته[2] ولا تحل للرجل مطلقته أبداً، بعد صدور حكم القاضي بالتفريق بينهما. «وهذا ينفى نفياً مطلقاً إمكانية عودتها إليه أو إجرائه عقد زواج جديد معها، سواء في مدة العدة أو بعدها أو بعد زواجها من زوج ثان وطلاقها منه.

وإن الزوج المعتدي يدفع للمعتدى عليه عطلاً وضرراً يعادل نصف أمواله[3] أحياناً.

كما أن الطلاق بيد الرجل وبيد المرأة أيضاً وهو ما يسمى بطلب التفريق إذ أن الشرع وتقاليد الموحدين لا يسمح بإلزام الزوجة بمساكنة الزوج إذا كانت كارهة له، أو غير راضية عنه، وهذا يستتبع تحقيق المساواة بين الرجل

---

(١) المادة ٢٧ من قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية الصادر بتاريخ ٢٤/ شباط / ١٩٤٨.

(٢) المادة ٢٨ من نفس القانون.

(٣) المادة ٤٨ من قانون الأحوال الشخصية، والجدير ذكره أن هذا المبدأ قد خفف كثيراً من نسبة الطلاق عند الموحدين.

والمرأة التي نصت عليها الشريعة الإسلامية وكثرت الإجتهادات في هذا الموضوع بين المذاهب الإسلامية.

ثالثاً: حرية الإيصاء:

«كي تكون مسؤولاً يجب أن تكون حراً».

إنطلاقاً من هذه المقولة فإن الموحد يوصي ما يشاء لمن يشاء وقد كرس قانون الأحوال الشخصية لهذه الطائفة هذه القاعدة في المادة /١٤٨/ الآتي نصها:

«تصح الوصية بكل التركة أو ببعضها لوارث أو غير وارث...».

وأما عند عدم وجود الوصية أو بطلانها يعود الإرث وفقاً للمذهب الحنفي مع وجود حق الخلفية ومفاده أن الفرع المتوفي قبل وفاة مورثه، تقوم فروعه مقامه وتأخذ نصيبه من الأرث كما لو كان حياً[١].

فما هي المصادر التي اعتمد عليها مذهب الموحدين الدروز ـ في هذين التشريعين، قد يتبادر إلى ذهن العامة أن إطلاق يد الموصي في وصيته مخالف للشرع الحنيف غير أن الحقيقة بخلاف ذلك، إذ أن الموحدين ـ الدروز ـ يعتمدون في تشريعهم هذا، على قوله تعالى: **﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾** (سورة البقرة: ١٨٠).

يقول الموحدون الدروز ـ إن هذه الآية المعروفة بآية الوصية هي آية محكمة غير منسوخة بآيات المواريث، وآيات المواريث هي قوله تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما**

---

(١) المادة ١٧١ من القانون المذكور، المعطوفة على المادة ١٦٩.

السدس... من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ (سورة النساء: ١١ ـ ١٢) آيات الموارث هذه لا تفسخ آية الوصية في نظر الموحدين كما سبق القول.

والموحدون الدروز ـ في ذلك على مذهب كثير من غيرهم من المسلمين، فقد ذكر لنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله القرطبي المعروف بابن العربي في كتابه «أحكام القرآن».

«إن الناس اختلفوا في الوصية التي قررتها آية الوصية وانقسموا في ذلك إلى قسمين، فأما الذين يقولون بأنها واجبة غير منسوخة فيحتجون بما رواه مسلم بن الحجاج عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (ص) أنه قال ما حق أمرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين، وفي رواية ثلاث ليال إلا ووصيته مكتوبة عنه»، وقد روى هذا الحديث الشريف أيضاً المحدث الفقيه الأشهر محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه ورواه كذلك الإمام مالك بن أنس في الموطأ كذلك أورده ابن سعد في طبقاته وأحمد بن حنبل في مستنده وأبو داود السجستاني، وابن ماجه، والنسائي في سننهم، والترمذي في صحيحه وغيرهم من المحدثين مما يكسبه قيمة عظيمة.

هذا وقد روى القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد قاضي الإمام المعز لدين الله في كتابه «دعائم الإسلام حديثاً آخر رواه أيضاً، المحدث الشيعي الشهير ابن بابويه القمي في كتابه «من لا يحضره الفقيه» واسنده إلى الإمام جعفر الصادق (ع) وهو من لم يحسن وصيته عند الموت كان ذلك نقصاً في مروءته وعقله».

أما الذين قالوا بأن آيات المواريث نسخت آية الوصية فهم غير متفقين فيما بينهم كما يذكر القاضي ابن العربي ـ ذلك أن منهم من يقول أن آيات المواريث نسخت جميع الآية، ومنهم من يقول إنها نسخت بعضها وهو الوصية للوالدين.

وهكذا فلا نستطيع أن نحكم بنسخ آية الوصية، إذ ليس هناك إجماع

على نسخها من هنا أصبح للموحدين ـ الدررز ـ الحق شرعاً في الاخذ بالوصية دون أن يكون عليهم أي حرج خصوصاً أن ممن قال بأنها محكمة غير منسوخة العالم الزاهد الكبير الحسن البصري رضي الله عنه الذي قال: «إن آية الوصية مخصوصة بآيات المواريث لا منسوخة بها، وقد شرح موقف الحسن البصري ابن حجر العسقلاني في كتابه «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» وللحسن البصري مقام مميز عند الموحدين الدروز، كما هو معروف.

والجدير بالذكر أن الذين يقولون بأن آية الوصية منسوخة ويستشهدون بقول رسول الله (ص) «لا وصية لوارث» هم على خطأ فإذا كانت آيات الميراث لم تنسخ آية الوصية على رأي كثير من الفقهاء، كما بينا ذلك فإن هذا الحديث لا يمكنه أن ينسخ قول الله عزوجل ذلك أن السنة لا يمكنها شرعاً أن تنسخ القرآن ما لم تكن السنة متواترة، وإذا نحن نظرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم، «لا وصية لوارث»، لرأينا أنه لم يصل رواته إلى درجة التواتر وقد بين ذلك بوضوح الدكتور مصطفى زيد أستاذ الشريعة بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة وذلك في كتابه «النسخ في القرآن الكريم»[١].

أما الميراث فإن الموحدين الدروز باقرارهم بحق الخلفية، أي أن الفرع إذا ما توفي قبل مورثه تقوم فروعه مقامه وتأخذ نصيبه كما لو كان حياً، يردون مورد الشرع أيضاً، ذلك لأنهم ينظرون إلى أن الإرث هو من حق ورثة المورث، لا ينازعهم فيه منازع، وقد أجل اكتسابهم لحقهم هذا إلى حين وفاة المورث، لذلك فقد أصبحت فروع الفرع أقرب إلى الفرع من فروع المورث الأخرى، وذلك أن أولاد الفرع هم بالحقيقة الأقربون من إخوته وأخواته وهكذا وجب أن ينتقل الإرث إلى فروع الفرع في حال وفاة الاخير، في حياة المورث قياساً على قوله تعالى في آية الوصية:

---

(١) ص ٢٧٢ القاهرة ١٤ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٣.

﴿الوصية للوالدين والأقربين[1] بالمعروف حقاً على المتقين﴾.

بقي أن نقول إن هذا الأمر ينسجم إنسجاماً كلياً مع مفهوم فرقة الموحدين ـ الدروز ـ للإمامة في الإسلام، وذلك إن هذه الفرقة هي فرع من أهل النص لا من أهل الإختيار، وأهل النص هم أولئك الذين يعتقدون أن الإمامة إنما تنتقل خلفاً عن سلف، فإذا كانت أمامة الأمة تنتقل من السلف إلى الخلف فكيف بالحرى متاع الدنيا وهي حقوق تبقى للفروع مهما نزلوا وهم أحق بها وهذا يمثل العدل والإنصاف[2].

رابعاً: التقمص:

إن موضوع التقمص لا يزال بين أخذ ورد فالبعض يؤمن به والبعض الآخر ينكره، فالمؤمنون به يقولون:

... إن الله سبحانه وتعالى خلق القاعدة الذهبية وهي قاعدة السبب والنتيجة أو الفعل وردة الفعل، وقيد مخلوقاته بها، فالإنسان حر في تصرفه لكنه مقيد بنتيجة هذا التصرف فمثلاً لو أراد أحد الإنتحار برمي نفسه من برج عال، فالمنتحر مخير قبل الإقدام على قذف نفسه، فيمكنه أن يقدم على الإنتحار ويمكنه الإحجام عنه، ولكن عندما يقرر الإنتحار، ويقذف بنفسه من على البرج يكون بذلك قد استهلك السبب الذي كان مخيراً فيه وأصبح مقيداً بالنتيجة وهي حتمية الإرتطام والموت، أو تكسير عظامه على الأقل وأذية

---

(١) الأقربون بالمفهوم التوحيدي: الأصول والفروع والحواشي وقرابة العقيدة والفكر والدين.

(٢) هذا ما ورد في التمهيد الذي سطره الدكتور سامي مكارم في كتاب الميراث والوصية عند الموحدين الدروز تأليف الشيخ مرسل نصر قاضي المذهب (آنذاك) وسماحة المرحوم الشيخ حليم تقي الدين.

نفسه، ومن هنا يقال الإنسان مخير في ـ السبب ـ أي الفعل، مقيد في النتيجة ـ أي ردة الفعل.

وقيل ان حالة المرء من صنعه، أي ان اعمالنا ترد إلينا، فإن كانت اعمالاً خيرة فتعود علينا بالخير، وان كانت شريرة فتعود علينا بالشر وما يأتي من صعوبة الزمان فهو من سوء الاعمال.

وما ذكرناه له دلالة واضحة في كتاب الله عزوجل إذ جاء فيه.

﴿من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

ويمكن أن تكون النتيجة في عصر الفعل أو تتراخى إلى عصر آخر فكم من الظلمة والجبابرة والمستكبرين الذين عاثوا الأرض فساداً رحلوا عنها دون أن نرى نتيجة ظلمهم، فهل أن هؤلاء تخلصوا من ردة الفعل، وبات الظلم على المظلومين؟.

لا شك أن العدالة تقضي بأن يعاقبوا عاجلاً أم آجلاً(١).

ويضيفون... إذا تسألنا هل أن الله عزوجل عادل أم جائر؟. فنستغفر الله ونسارع إلى القول أنه عادل حتماً؟. ويقودنا استغفارنا وقولنا إنه عادل إلى السؤال التالي: ما دام الله عادلاً فلماذا خلق هذا غنياً وذاك فقيراً؟ ولماذا جعل

---

(١) إن الموحدين يعتقدون أن القيامة حق وفيها المحاسبة النهائية لجميع البشر، وإن الجنة حق والنار حق. وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويعتقدون بأن جهنم مأوى الكافرين خالدين فيها أبداً، ويعتقدون بنعيم الأجساد ونعيم الأرواح وعذاب الأجساد وعذاب الأرواح.
والموحدون يعتقدون أن الإيمان بالمعاد ضرورة إعتقادية أتفقت عليها كل الشرائع السماوية، وقد تحدث الفيلسوف اليوناني أفلاطون المولود عام /٤٢٧/ ق.م عن المعاد فقال:
«لو لم يكن هناك معاد نرجو فيه الخيرات، يعاقب المذنب ويكرم المحسن لكانت الحياة فرصة للاشرار، ولكان القرد أفضل من الإنسان».

تمايزاً في الصحة والعقل بين عباده؟. ولماذا اختار العمى لهذا والبصر لذاك؟ ووضع الصمم بذاك ولم يضعه بهذا؟ تساؤولات عدة لا يمكن الأجوبة عليها إلا بالقول تلك إرادة الله التي لا نعلم مداها ولا فحواها، وهنا يصح القول أن الله ميز بين عباده فجعل هذا غنياً وعاقلاً استطاع أن يؤدي ما فرض عليه من العبادة وفاز بنعيم آخرته بعد أن فاز بنعيم دنياه، وذلك الفقير المريض الغير مميز بعقل رصين سها عن عبادة ربه وخسر آخرته بعد خسارته لدنياه؟.

أليس من حق الفقير أن يعترض بالقول إن الفقر يرافقه الكفر في أكثر الأحيان وأن يعتبر فقره ـ من وجهة نظره النسبية ـ حملاً ثقيلاً على كاهله يمنعه من الصلاة والصوم والزكاة والحج؟.

اليس من حق الغني أن يعترض ـ ان كان كافرا ـ ان غناه كان سببا لكفره وبلواه إذ انزلق في مهاوى الشهوات وانقاد إلى الغفلة عن الطاعة والقيام بالمفترضات؟.

أليس من العدل أن يتقلب الإنسان في حالات متعددة بين غنى وفقر ومرض وصحة وحاكم ومحكوم، ثم يحاسب بعد ذلك عما جنت يداه من خير أو شر؟.

وأمام سلسلة التساؤول التي لا نهاية لها. حاول بعض السابقين أن يجدوا الحل في كتاب الله فقرأوا فيه كثيراً من الآيات التي تدل على التقمص نذكر منها قوله تعالى:

﴿وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (سورة البقرة: ٢٨).

﴿الله يبدوء الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ (سورة الروم: الآية١١).

﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ (سورة العنكبوت: ١٩).

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ (سورة البقرة: ٥٦).

﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾ (سورة مريم الآية: ٦٦).

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ (سورة البقرة: ١٥٤).

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. . .﴾ (سورة البقرة: ٢٤٣).

﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾ (سورة الحج: ٦٦).

وهكذا فقد اعتبر بعض المجتهدين في المذهب أن هذه الآيات تشير بوضوح إلى التقمص، وقد التقوا بتفسيرهم هذا مع بعض المعتقدات الهندية واليونانية والمصرية القديمة.

وعلى أي حال فإن إعتقادهم بالتقمص لا يخرجهم من الملة، فهو إجتهاد بعض السابقين فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد.

غير أن بعض أبناء الطائفة لا يعتقدون بالتقمص وبعضهم يصر عليه لأن فيه حلاً لبعض التناقضات فقال أحدهم:

«ولد توأم أحدهما ضرير والآخر بصير؟ فماذا جنت يد الضرير حتى ولد أعمى؟ وماذا فعل البصير حتى ولد بصيراً؟.

ويجيب عن هذا باستشهاده في قوله تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾** (سورة الشورى: ٣٠).

ويختم قوله. . . فلا شك بأن التوأم الضرير كان له فعل سابق استوجب

ولادته ضريراً، وكذلك البصير كانت نعمة الإبصار عليه نتيجة عمل استوجب وجوده بصيراً».

والله أعلم بما استودعه في كتابه العزيز[1].

---

(١) نعتقد أنه لا جدوى في مناقشة موضوع التقمص بين من يؤمن به وبين من ينكره فيجب أن يترك الأمر للتطور العلمي والتعمق الفقهي وهما المؤهلان لإثبات الفكرة أو نفيها. فلا يجوز أن نجعل منها قضية تكفر المؤمنين بها أو المنكرين لها. ولنعمل بقوله تعالى: ﴿فأن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (سورة النساء: ٥٩).

الفصل الخامس

بدء دعوة مذهب الموحدين

في زمن الدولة الفاطمية أقبل الناس على علوم أهل البيت، واعتناق المذهب الفاطمي الممثل في الفقه الإسماعيلي المعمول به آنذاك وقد تآلف الفاطميون مع أهل السنة والجماعة ومكنوهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، وسمحوا لهم بأن يكون لهم حلقات في المسجد وزوايا يدرس فيها الفقه على مختلف مذاهبهم، وكان لكل فقيه منهم زاوية، يجري عليه الرزق، وذكر القلقشندي أن مذاهب مالك والشافعي وحنبل كانت ظاهرة في مملكتهم، وقد سمحوا للسنيين بتولي القضاء أحياناً شرط خضوعهم للفقه الإسماعيلي[1]، وقد أصدر الحاكم بأمر الله عام ٣٩٨ هـ مرسوماً جاء فيه «أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ﴿**لا إكراه في الدين**﴾، مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه، معاشر المسلمين، نحن الأئمة وأنتم الأمة من شهد الشهادتين. . .

ولا يحل عروة بين اثنين تجمعهما هذه الأخوة عصم الله بها من عصم وحرم عليها ما حرم من دم ومال ومنكح، الصلح والصلاح بين الناس أصلح، والفساد من العباد مستقبح يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت

---

(١) ومن المؤلفات الشهورة «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان وراحة العقل للكرماني.

في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله وهو إذاك بالمهدية والمنصورية وأحوال القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية، يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون صلاة الخميس للذين جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون.

يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ولا يمنع من التكبير عليها المربعون يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون، لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف، لكل مسلم مجتهد في دينه واجتهاده وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه وعليه حسابه، ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم لا يستعلي مسلم على مسلم بما أعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما أعتمده من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون»[1].

ومن قراءة هذا المرسوم بعمق وإمعان يتبين كيف أن الدعوة الفاطمية كانت متسامحة وتسير تحت شعار «لا إكراه في الدين» وكيف أن الإمام الحاكم أراد القضاء على التعصب والعداوات المذهبية، فهو يبيح الإجتهاد ويحيل المجتهد إلى الله ربه عنده كتابه وعليه حسابه وطلب المساواة وعدم استعلاء مسلم على مسلم بما اعتقده، وأباح الآذان بحي على خير العمل دون أن يؤذى من لا يؤذن بها، كل ذلك في سبيل وحدة المسلمين وجمع شتاتهم ليكونوا يداً واحدة على أعدائهم وهذا الموقف لا يزال يسرى في نفوس

(١) الحاكم بأمر الله لعبد الله عنان ص ٧٧ مخطوطة لدى بعض أبناء الطائفة.

الموحدين فهم إذاً يقاتلون في سبيل وحدة المسلمين، ويطالبون بالإبتعاد عن التعصب لمذهب من المذاهب ويدعون إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله والجميع مرجعهم إلى الله الذي ينبئهم بما كانوا يعملون.

وكلامنا عن الوحدة يذهب صرخة في واد، بل يقابله التشكيك من المغرضين والمنافقين والمشركين الذين يخافون يقظة الإسلام والمسلمين، ويتعاونون مع الصهيونية العالمية ودول الإستكبار للقضاء على هذه الأمة ويطفئوا نور الإسلام بإيقاظ العداوات ونشر الفتاوى ممن في قلوبهم مرض.

ونبشوا قبور التاريخ، وأبرزوا أقوال المنحرفين في أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وتطاولت الأقزام لتثلم مكانة الإمام الحاكم الفاطمي الذي منع عن أمثالهم في ذلك الزمان ما تهواه أنفسهم، فحرم المسكرات وأبعد المنكرات وعاقب متعاطبها بشدة، وعطف على متبعي الصراط المستقيم وشدد النكير على كل من شذ عن هذا المنهاج القويم ولو كان من المقربين إليه، فأعلن الناقمون الغرابة في أطواره، وادعوا التناقض في أحكامه المتناهية بالرحمة والقسوة وصنفوا مؤلفات تناقلها المؤرخون كل على هواه، متأثرين بفتاوى المستعبدين من رجال الدين لأسيادهم المماليك والعباسيين والأتراك من بعدهم، فغاب الصواب وانتشر الكذب والفساد والإفساد وما زال الجواسيس والعملاء والمنهزمون في الحرب، يطلون بمؤلفاتهم المزيفة لإبعاد الموحدين الفاطميين عن الدوحة الإسلامية وسنفرد بحثاً خاصاً بالإمام الحاكم وظروف مجيئه وغيبته.

الإمام الحاكم بأمر الله

قبل أن نبدأ الكلام عن الإمام الحاكم لا بد لنا من البحث في المجتمع المصري وانحداره الأخلاقي قبل وصول الإمام إلى الحكم.

قال الدكتور محمد حسين: «وإذا درسنا حالة المجتمع في عصر الحاكم فسنرى أنه كان منحلاً إنحلالاً تاماً فالثروة التي تدفقت على مصر في عهد الفاطميين جعلت المصريين يسرفون في البذخ والملذات، وأصبح الشعب مترفاً ميالاً إلى الإنسياق في تيار المجون واللهو... وقد ترك شعراء وكتاب هذا العصر آثاراً تدل على ذلك كله[1]...

وقال الدكتور عبد الله عنان: «ولكنها (الإمامة) ألفت مجتمعاً متحضراً يميل إلى الترف والحياة الناعمة، وكانت عوامل الإنحلال تجثم في قرارة هذا المجتمع على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله وظهر هذا الإنحلال الإجتماعي في أشد مظاهره فيما نظمت حياة الليل[2] وقد وصفهم السجل المعلق بقوله:

... وأنتم مع ذلك في وادي الجهالة تسبحون وفي تيه الضلالة تخوضون وتلعبون فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية... وآثرتم

---

(١) طائفة الدروز ٣٥ ـ ٣٨.

(٢) أسرار الدعوة الفاطمية ص ٣٣ ـ ٩٤.

عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنوا إسرائيل وكثر بغيكم ومرحكم على الأرض حتى كاد لها أن تضج إلى الله تعالى فيكم من كثرة جوركم ومرحكم عليها. . .

وولي الله سلام الله عليه مكافح لها فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم وتستفيق من السكر والجهل عامتكم، فما إزددتم إلا طغياناً وعصياناً واختلافاً. تتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول. . . وأنتم مع ما تقدم ذكره من مساوئكم متحاذقين متحاقدين متزاحفين يجاهد بعضكم بعضاً كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب، ولا ينهيكم عن سفك الدماء وهتك الحريم دين من الله. . . قد غلب عليكم الجهل. . . وإن الإسلام والإيمان قد شملكم وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله. . . فأي نازلة هي أكبر منها وأي شماتة للعدو، ويلكم أعظم من مثلها لقد أصبتم أيها الناس في أنفسكم وأديانكم، وأصيب فيكم أمير الؤمنين سلام الله عليه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[١].

ويستطرد الحاكم معلناً عن غاياته وأهدافه الإصلاحية قال في السجل:

«. . . ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان التي هي الدين عند الله. . . وبه شرفتم وظهرتم في عصره على جميع المذاهب والأديان. وميزتم من عبدة الأوثان وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان وأنقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً فدخلوا في دين الله أفواجاً. . . وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وعمر بيت الله الحرام. وأقام دعائم الإسلام وفتح بيوت أمواله وأنفق في سبيله، وخفر الحاج بعساكره وحفر الآبار وآمن السبيل والأقطار وعمر السقايات وأخرج على الكافة السدقات وستر العورات، وترك الظلمات ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات التي جعلها الله تعالى عليكم من المفترضات، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً، وداولها

(١) عبد الله عنان: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

بين الناس حيناً ودهراً وفتح لكم أبواب دعوته، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليهديكم بها إلى رحمته ويحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام، لتبلغوا مبالغ الصالحين فنسيتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة وآثرتم عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل[1]. . . ».

بالإضافة إلى الإنحلال الخلقي الذي أصاب الشعب المصري كان هناك إنحطاط وإضطراب سياسي في الداخل والخارج، مما ينذر بسوء العاقبة وتفكك الدولة الإسلامية وبالتالي القضاء على الإسلام.

فالقرامطة في الجنوب كانوا يوزعون الخراب والدمار.

وأبو ركوة في أفريقيا يحاول إستعادة أمجاد الأمويين وفي دمشق كانوا ساستها يتأرجحون بين مسالمة الروم ومخالفة القرامطة.

وأمام هذا القلق الإجتماعي والسياسي والأخلاقي فلا بد من وقفة مصلح لا يخشى في الله لومة لائم، ويقدم بإرادة فولاذية على تصحيح الأوضاع وأولها ترسيخ الأخلاق والحفاظ على السنن وإقامة الشعائر والضرب بيد من حديد على يد مروجي الخلاعة والتهتك غير آبه بالتشنيع والدعايات المغرضة، فالهم الأول إتقاء الله في الحكم، وترسيخ العدالة وإطلاق الحريات المشروعة، وتقييد الفلتان الأمني والأخلاقي.

فقيض الله لهذه الأمة مجيء الإمام الحاكم سنة ٣٨٦ هـ وهو لا يزال في سن الحادية عشرة الذي لم يتحيز لفئة على فئة، بل تجاوز المفهوم السياسي الذي كان سائداً آنذاك والذي فرق وحدة المسلمين، إلى المفهوم الروحي الذي يعتبر الجميع مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة وفي عام ٤٠٠ هـ ركب الحاكم إلى جامع عمرو وهو ملاذ السنة ـ وصلى فيه ـ ثم أصدر مرسوماً يحمل طابع التوفيق بين المذهبين «لا إكراه في الدين. . . لا يستعلي مسلم

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٤ وما بعدها.

على مسلم فيما أعتقده ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده».

فالكل عنده سواء رغم كونه إماماً لمذهب ديني، وقد قال عنه أحد المنصفين:

«ولعلنا بما عرفنا، عن سيرة الحاكم قد قضينا على الكذب الذي استمر يحيط باسمه إلى وقتنا هذا، ويجب أن نقر أننا وجدنا لذة كبرى في الوصول إلى أم الحقيقة لا تعادلها لذة أخرى[١].

وقال فيه الدكتور محمد كامل حسين: «ولم يكن الحاكم عفيفاً عن أخذ الأموال فحسب بل عرف عنه بعده عن اللهو وما ينصرف إليه من كان في مثل سنه من الشباب فلم يشرب الخمر ولم يرتكب فاحشة، وهي ناحية غريبة من ملك شاب في بيئة عرفت بحب اللهو والمجون.

فانصراف الحاكم عن متعة الشباب يدعونا إلى التفكير في حقيقة نفسية هذا الشاب وربما كانت صفاته الجسمانية تزيد في حيرتنا من أمره، فقد كان في بسطة من الجسم مهيب الطلعة جهوري الصوت ذا عينين نفاذتين حتى أن المؤرخين يذكرون أن من ينظر إليه كان يرتعد خوفاً من ضخامة جسمه فشاب في مثل هذه القوة الجسدية وفي ظروفه التي أحاطت به، ومن أبهة الملك وجلالة الإمامة ووفرة المال والنفائس وكثرة الجواري الحسان، فشاب هذا شأنه يبتعد عن ما يأتيه أترابه من الشباب يجعل الباحث في حيرة من أمره[٢].

وقال فيه الدكتور الشيخ محمد علي الزعبي «لقد حافظ الحاكم بأمر الله على الصلوات الخمس لا سيما صلاة الجمعة وبذل جهداً في ترميم قبة الجامع الأقصى، وجعل قسطاً من وقت الوعاظ للنساء... ويضيف: هذه ترجمة الحاكم مستقاة من عشرين مرجعاً نقدمها خدمة للعلم ونصراً للفضيلة واعترافاً بمآثر الفاطميين ومحاسن الهاشميين ومناقب الإسماعيليين».

---

(١) الحاكم الخليفة المفترى عليه ص ١٨١ للدكتور عبد المنعم ماجد.
(٢) طائفة الدروز ص ٣٧.

وقال محمد عبد الله عنان: «وكان الإمام يحتقر الألقاب، كما يحتقر متاع هذه الدنيا، اشتهر بالزهد والورع وأدهش الناس بتصوفه الفلسفي، اقتصر طعامة على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع.

ويقال إنه كان يأمر أن تظل الحوانيت مفتوحة ليلاً دون حراسة ويسترد كل ما يسرق فوراً بعلم خارق... وكان يجري تفتيشاً دقيقاً لأعمال الدولة كثيراً ما يقوم بها بنفسه لمكافحة الغش والإهمال والفساد، وللإشراف على حاجات شعبه وتصرفاته.

وقد عرف الإمام الحاكم عن نفسه فقال:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي ... إلا إلهي وله الفضل
جدي النبي وإمامي أبي ... وديني الإخلاص والعدل

وقال المؤرخ النصراني الانطاكي في عدالة الحاكم:.

«وأظهر الحاكم من العدل ما لم يسمع به، ولعمري أن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم، ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال أحد بل كان له جود عظيم، وعطايا جزيلة وصلات واسعة، ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال العظيمة ما لا يقع عليه الإحصاء لكثرته، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لا سيما من كان له وارث ومن لا وارث له كانت تركتهم تستوجب منه فيهبها على الأكثر، وأسقط جميع الرسوم والمكوس التي جرت العادة بأخذها[1].

والآن نحن أمام حاكم إمام عادل تقي ورع وحازم لا يخشى في الله لومة لائم، وإمام أمة متهتكة ماجنة باذخة تركت تكاليف الإسلام ومالت إلى الراحة منها، والإباحة في إرتكاب الموبقات وساد الفسق وتحكم الكفر في النساء والرجال.

---

(١) تاريخ الانطاكي ص ٢٠٦.

فنتساءل كيف يمكن للإمام العادل أن يقوِّم ما أعوج ويصلح ما أفسد؟.

هل يكون الإصلاح بالتهاون في إقامة حدود الله وترك أبناء الأمة في الضلالة سابحين؟.

أم أنه يستعمل أنصاف الحلول ويساوم المخربين؟.

أم يتغاضى عن الفساد والإفساد ويكون شاهد زور على كل ما يحصل وهو المسؤول أمام نفسه وربه؟.

ألم يصرخ المخلصون في زماننا هذا بعد أن انقلبت المقاييس واختلطت الأمور طالبين دكتاتوراً عادلاً؟.

وكم تنفرج أسارير المخلصين عندما يسمعون أن الحاكم المسؤول قد اتخذ قراراً إصلاحياً وسارع إلى تنفيذه بالقوة، أو إنه قضى على عصابة سرقة، أو شلة مهربة للمخدرات أو غير ذلك من الأمور الأمنية والإصلاح الإداري؟.

وكم يرتاح المجتمع إلى خبر ملاحقة أهل الفجور والبغاء؟.

كل ذلك يجعلنا ننظر إلى تصرفات الإمام الحاكم في إدارة دولته نظرة عقلانية تجعلنا نقر بصوابية ما يقوم عليه من عزل القضاة وقتلهم عندما يلمس منهم الإنحياز والطمع في أموال الرعية.

وكذلك إلى قتل الولاة بعد عزلهم بعد أن يشعر أنهم اعتدوا على أموال الرعية وظلموا الناس وقتل من قربهم بعد أن اعتقد صلاحهم فتبين بأن الخيانة تعمر نفوسهم.

والحاكم أظهر مثالية فيما أخذ به نفسه من تقشف وتزهد مع ما ورثه من الملك العظيم والعز والنعيم».

فأخرج من قصره جماعة من حظاياه، وأعتق سائر مماليكه من الأناث

والذكور وحررهم لوجه الله تعالى وملكهم أمر نفوسهم، والتصرف بما يملكونه.

وكذلك أبطل ما كان يستعمل برسمه الخاص من الثياب... ثم لبس الملابس الخشنة من الصوف، ومركب حديد في رجليه.

«وكذلك رفض الحاكم مظاهر التكريم التي كان يقوم بها حرس القصر ومنع المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الآذان».

وتوجه الحاكم إلى القضاء لإصلاحه وقد قال الدكتور عبد المنعم ماجد.

«ولقد أصبح شغل الحاكم الشاغل منذ توليته الخلافة، تنظيم القضاء، وعلى أسس ثابتة، فحينما تولى الحاكم الخلافة كان في القضاء محمد بن النعمان منذ أيام العزيز وتوفي في أيام وساطة برجوان في ٣٨٩ هـ فسمع الحاكم بأن محمد بن النعمان وجد عليه من أموال اليتامى وغيرهم ستة وثلاثين ألف دينار، فأمر بالإحتياط على أمواله، وبيع كل ما تركه. وتقديم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم...

«فولى حسين بن علي النعمان... وقد شرط عليه ألا يتعرض لأموال الرعية وذكره في سجله بما يجب أن يذيعه من عدل وإنصاف، وترك المحاباة لذي رحم وقربى أو غيره مهما علا شأنه وحفظ مال الأيتام ولكي يمنعه من الرشوة ضاعف أقطاعه وصلاته، كما منحه من مظاهر التكريم الشيء الكثير... ولكن الحسين بن النعمان سرق أموالاً اودعت في ديوانه كما تسبب في موت أحد الرعية بسبب تافه... فحبسه الحاكم وبعده ضرب عنقه واحرقه بالنار في ٣٩٥/ ١٠٠٤.

فولى عبد العزيز بن النعمان الذي بدأ بداية حسنة، ولكن حدث لعبد العزيز فضيحة تتعلق بحضور مجلس شراب... فخاف من الحاكم وهرب مع حميه جوهر، فلما عاد قتله مع ابن جوهر في ٤٠١ / ١٠١٠.

ويبدو أن الحاكم اقتنع بفساد أسرة النعمان. . . فولى مالك بن سعيد الذي منح سلطات واسعة. . . وكان الحاكم يبالغ في تكريم مالك، فاقطعه داراً كبيرة، وجعل إقطاعاته في السنة حوالي خمسة عشر ألف دينار وكان يدعوه إلى مائدته ليأكل معه. . . ولكن مالك خالف أمر الحاكم، فسهل لامرأة عاهرة العبث كما ساءت سمعته. . . فقتله في ٤٠٥/ ١٠١٤.

وقال الدكتور ماجد: «وأخيراً وقع اختياره على مصري اسمه أحمد بن العوام ولما كان ابن العوام سنياً فإن الحاكم شرط عليه أن يكون أساس حكمه كتاب الله وسنة نبيه والمأثور عن علي وآباء الحاكم. . . وقد استمر ابن العوام يتولى القضاء حتى نهاية الحاكم مرضياً عنه[1]».

وهكذا نرى أن الإمام الحاكم كان يغدق على القضاة حتى لا تبقى نفسهم تواقة لما في أيدي الغير، ولكن الفساد المتغلغل في عروقهم لم يردعهم عن ارتكاب المخالفات والرشوات فقتل الفاسدين منهم وأبقى على من رأى فيه الإستقامة والعدل.

والتفت الحاكم إلى إصلاح الفساد الإجتماعي الذي ساد المجتمع الفاطمي في القاهرة وقد وصفه الأستاذ عنان بقوله:

«وكانت عوامل الإنحلال تجثم في قرارة هذا المجتمع الذي يخفي انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة، وكانت الرذائل الإجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله، وظهر ذلك الإنحلال الإجتماعي في أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل التي يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للإصلاح الإجتماعي، ولجأ إلى تلك القوانين والإجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الإجتماعي الشامل، وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين وتحريم الغناء واللهو الخليع إلا أن يكون لتقويم أخلاق شعب،

---

(١) المرجع السابق ص ٦٨ ـ ٦٩.

وحماية أمواله وصحته من الإسراف والعبث، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التي يغرق فيها.»

«مطاردة المرأة والحجر عليها: ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية ولا سيما في عصور الفساد والإنحلال، وقد شهد الحاكم بنفسه أثناء طوافه الليلي كثيراً من ضروب التهتك والخلاعة التي كانت تغرق فيها نساء العصر... وقد رأى الحاكم في الحجر على المرأة والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدنية، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة».

وأقدم على تحريم بعض الأطعمة التي تقوي الشهوة الجنسية كل ذلك في سبيل كبح جماح الشهوات التي أمعنت في تحريف المجتمع وساهمت في إنحلاله».

وصور الدكتور عبد المنعم ماجد النشاط الإصلاحي للحاكم بقوله:

«كذلك أخذ هذا الخليفة، الذي كان يملك عليه كل حواسه، على عاتقه أن يقوم بالحسبة، وهي إصطلاح إسلامي يعني في أساسه، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما يكون علناً... وقد حاول المؤرخون السنة وغيرهم من أعداء المذهب الشيعي السخرية من الأوامر، ورموه بسببها بالخلل في العقل والجنون... وعللوها بمرض «المالنخوليا»... ولكن في رأينا أن هذه المراسيم إذا فسرت تفسيراً دقيقاً في ظروف المجتمع الذي عاش الحاكم فيه نجدها تتفق جميعاً وقاعدة الحسبة. فضلاً عن أنها تدل على وعي كبير لشؤون الحياة في زمنه وتدين بالغ.

«ومن قوانين الحسبة كان الردع بحذف الشيء المخالف، والجلد بالسوط والتشهير بالطواف بالمدنية».

وبالنسبة للتجار يقول الدكتور ماجد:

«فقد راقب الحاكم مراقبة دقيقة التجار وأصحاب الحرف والصناعات لمنع الغش وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً».

ويضيف الدكتور ماجد قوله:

«وكذلك كانت الواجبات الأخلاقية، من عمل الحاكم البارز في الحسبة مما جعل الحياة في مصر والقاهرة في عهده ينتابها تغيير لم يحدث من قبل، فنعرف أن الدولة الفاطمية منذ مجيئها مصر ـ لكي تجتذب المصريين إلى جانبها ـ بالغت في ترك الحرية لهم. فكان المصريون مع إسلامهم يشربون الخمر قبل النصارى، وهي التي تعودوا عليها منذ زمن الفراعنة... كذلك كانت بيوت الفساد والفجور تملأ أنحاء المملكة، وانغمس الناس في الإباحية فنجد الحاكم يعمل على أن يجبر الناس على وضع حدّ لهذا المجون. فقرر من الأوامر الرادعة ما يصون الأخلاق المهددة فيأمر محتسبه ـ الذي كان رئيس شرطته أيضاً ـ، بمنع شرب الخمر وصنعه، وتتبع السكارى ولكن الناس شربوها في السر، فما كان من الحاكم إلا إن حرم كل ما يدخل في صناعة الخمور: فقطعت كروم الجيزة وبلغ ما قطعه منها مائة ألف كرم، وديس العنب في الطرقات تحت أرجل البقر وغرق بعضه في النيل، كما كسرت جرار العسل ودنانها وبلغ ما أراقه منها خمسة آلاف جرة في أربعة أيام، ونهى التجار عن بيع الزبيب... وبعد ذلك، خفف الحاكم من شدة أوامره فأباح بيع العنب إلى أربعة أرطال والعسل إلى ثلاثة أرطال، واستمرت أوامره المشددة في تحريم الخمر فكان يقيم الحد على من يشربها ولو في السر...

كذلك صوناً للأخلاق المهددة نظم الحاكم دخول الحمامات التي انتشرت في مدن الإسلام إنتشار المساجد لعلاقتها بالوضوء، ولكنها تحولت إلى مواخير لإهمال الحكام شؤون الحسبة فمنع الحاكم دخول الناس إليها عرايا بدون مئزر ومنع اختلاط الرجال والنساء فيها، فهوجمت وأخذ من كانوا بغير مئزر وأدبوا...

وقد ضرب الحاكم بيد من حديد على العناصر الفاسدة في مملكته ووضع حداً للهو فأصدر أوامره بإزالة المواضع التي كانت لأهل الفساد

والفجور في مملكته، كما تتبع النساء العابثات واستقصى أحوالهن. . . ومنع الغناء وأحرق الاته. . . وكذلك منع الناس من الجلوس في المقاهي والحوانيت ليشربوا فيها الخمر، أو خروجهم إلى الصحراء للرقص والغناء على عادتهم ومنع لعب الشطرنج فكأنه كان شديد الرغبة في أن يتحول شعبه عن اللهو كلية، إلى العمل النافع: وهذه عقلية سبقت عصرها ولا ريب وفوق ذلك، نسمع لأول مرة في التاريخ عن إصدار أوامر ترمي إلى **وضع حد لسفور النساء منعاً للفتنة، مما يدل على حمية نادرة**[١].

ولم ينس الحاكم النهضة العلمية فقد أولاها إهتماماً بالغاً، كيف لا؟. والدولة الفاطمية قامت في المغرب على دعائم العلم والثقافة والعقل، وكان الفاطميون يعتقدون بأن أي نهضة علمية لا تصل إلى مستوى مرموق إلا إذا أجريت على يد أحفاد الرسول (ص) وكانوا يعتقدون بأن الإمام مصدر العلم والعرفان وهو يقوم بدور المعلم.

وقد اشتهر الحاكم بسعة إطلاعه وغزارة علمه وكان يغدق على العلماء والفقهاء، وفي عصره إزدهرت الحركة الأدبية والعلمية في مصر، وقامت دار الحكمة إلى جانبها دار العلم الذي كان يضم المكتبة الفاطمية الكبرى وهذان المركزان كانا يدفعان بالحركة العلمية والعقلية إلى جانب الأزهر وجامع عمرو، وقد أجزل الحاكم العطايا والمخصصات لدار الحكمة وزودها بخزائن الكتب القيمة وعقد مجالس المناظرة للعلماء والأدباء، وغمرهم بصلاته،

---

(١) وأما المغرضون والمتعصبون في كل زمان ومكان يحاولون النيل من المصلح والإصلاح بتأويل سخيف لا يتناسب إلا مع نفوسهم الضعيفة وتعصبهم الأعمى وغرضهم المخرب لمقام الإسلام، ووحدة المسلمين، فلا ينظرون إلا في بطون مؤلفات الأعداء لينهلوا ما تهواه أنفسهم من المطاعن والمثالب خدمة لأسيادهم المتربصين بالأمة الإسلامية، والعاملين على جعلها شعوباً وقبائل يقطع بعضها رقاب بعض، رغم ما نهى عنه الرسول (ص) بقوله: «ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (المؤلف).

وقرب إليهم عدداً من أقطاب المفكرين والأدباء المشهورين في ذلك العصر أمثال الأمير المسبحي، ومحمد بن القاسم بن عاصم شاعره وجليسه، وأبي الحسن علي الشابشتي صاحب كتاب الديارات وغيرهم.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الحركة العلمية في عهد الحاكم بأمر الله من الوقوف قليلاً أمام العلامة الرياضي والمهندس الكبير «الحسن بن الهيثم» الذي أشتهر بكتابه علم المناظرات في البصريات، وهذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية وصار كتاباً مدرسياً في أوروبا، ومن المعلوم أن ابن الهيثم كان يعيش في دمشق فسمع الحاكم بأمر الله عنه كلاماً مفاده:

«لو سمح لي الحاكم بأمر الله الفاطمي لعملت في النيل عملاً يغني مصر، فبعث الحاكم بأمر الله بطلبه ولما جاء إلى مصر زوده بكل ما يحتاج إليه وأرسله إلى موقع الشلالات في أسوان وهناك أجرى دراسات واسعة ثم عاد إلى القاهرة حيث عكف على دراسة موازنة الدولة الفاطمية وقدراتها المالية وعندما مثل أمام الحاكم بأمر الله أعلن بصراحة إستحالة نجاح المشروع، وقدم له البيانات عن تكاليف المشروع وعن ميزانية الدولة التي لا تسمح بالتورط في مثل هذا العمل العظيم فشكره الحاكم بأمر الله على ضراحته وأبقاه في مصر قريباً من دار الحكمة مشمولاً برعايته وعطفه.

وطلب الحاكم من عامله بحلب أن يرسل إليه أبا العلاء المعري الشاعر الفيلسوف ولما أعتذر بسبب مرضه، أمر بأن يترك له ريع الدولة من بلدة معرة النعمان السورية طيلة حياته.

وأرسل بطلب الفيلسوف الكبير أحمد حميد الدين الكرماني الذي كان يعيش في العراق وعندما حضر حصر مهمته بإلقاء سلسلة من المحاضرات في دار الحكمة لتعريف خصائص الإمامة ومعرفة مرتبة الأئمة، ومحاربة القائلين بالإلوهية والمقالات والإلحاد، فقام بالمهمة، كما وضع في مصر رسالة مباسم البشارات والرسالة الواعظة، وهي تهدف إلى الإعتدال بالإعتقادات الفاطمية، وإلى سلوك الطريق الصحيح والكرماني هذا هو حجة العراقين ومن

أعظم الفلاسفة الذين أنجبتهم الدعوة الإسماعيلية، فكتابه راحة العقل بالإلهيات أعظم كتاب انتجته المدرسة الفلسفية الإسلامية.

ومن العلماء البارزين في ذلك العصر علي بن يونس الفلكي المشهور، وقد ذكر أن الحاكم بأمر الله قربه ومحضه عطفه، وكان والده العزيز بالله قد أقام له مرصداً على جبل المقطم حيث تمكن من أن يرصد كسوفين للشمس، ولهذا العالم كتاب الزيج الحاكمي، وقد كتبه تخليداً لذكرى الحاكم بأمر الله ومن الجدير بالذكر أن ابن يونس هو أول من اخترع بندول الساعة وليس غاليلو كما ذكر(١).

ورغم إنشغال الخليفة الفاطمي بالأحداث الجسام والإضطرابات الداخلية والخارجية فقد عنى بتجديد الجامع الأزهر، وأدخل عليه الإصلاحات والتحسينات الضرورية كما أنشأ جامعة دار الحكمة ودار العلم الشهيرة بالإضافة إلى مسجده المعروف بجامع الحاكم أو الجامع الأنور، وكان والده العزيز بالله قد بدأ بإنشائه ولما يتمم بناءه، ولما فرغ الحاكم بأمر الله من بنائه عنى بفرشه وتأثيثه عناية كبرى وزينه بالستور الفخمة والتنانير الفضية، وصلى فيه عند افتتاحه، وكان يوماً مشهوداً من أيام مصر الخالدة.

وأنشأ جامع راشدة، وأشرف بنفسه على تأثيثه وتزينيه أيضاً كما صلى فيه لدى افتتاحه وخطب في الناس وهكذا بالنسبة لجامع المقس، وبنى في جامع المقطم مصلى عرف بمصلى العيد، وكان يختلف إليه من حين لآخر عندما يؤثر العزلة والإنقطاع للعبادة والتأمل.

وفي سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بأمر الله بإحصاء المساجد التي لا مورد لها، فوجدها ثمانماية وثلاثين مسجداً في جميع أنحاء مصر، وهنا أصدر أمره بأن ترصد لها النفقات الضرورية كما أجرى فيها الشعائر وفي سنة ٤٠٥ هـ

---

(١) الحاكم بأمر الله ـ عارف تامر ـ ص ٧٣ ـ ٧٤.

وقف عدة مزارع وقرى وأراضي على القراء والفقهاء والمؤذنين وموظفي المساجد وحفاري القبور والعاملين في المصحات العامة والمستشفيات، كما وقف على الأزهر ودار الحكمة قسماً من أملاكه الخاصة وخصها ببعض ما كان إليه من الجهات الأخرى وهي أموال الزكاة الخاصة.

ومن مآثر الحاكم بأمر الله أنه أغدق المنح على الأساتذة المولجين بدار الحكمة وخصص لهم ما يكفل لهم الحياة(١).

النهضة الدينية والمذهبية:

إن مفهوم الأمامة لا ينفصل عن مفهوم المجاهدة، وهي مقيدة في تعاليم الدين والزهد والتهجد والعبادة، وهي مرحلة من مراحل السمو البشري والإمام هو أرقى الواصلين في عصره وهو أكثر الناس استعداداً لتلقي إشراق الأنوار العليا والإمامة هي أفضل المراتب لأنها مرتبة عقلية سامية.

ومن هذا المنطلق رأى الإمام الحاكم بفكره الثاقب وروحانيته السامية بأن الواجب يقتضي إصلاح النفوس بعد إصدار النصوص القاضية بالإصلاحات وتقييد الفلتان الإجتماعي والأمني والأخلاقي، فمال إلى التصوف المقرون بالعرفان والمستمد من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أبائه وأجداده، ولكن خوف العباسيين وغيرهم من الدولة الفاطمية التي يحكمها الإمام الحاكم جعل أعداءها يتقولون على الحاكم أقاويل لا تمت إلى الحقيقة بصلة، كان الهدف منها زعزعة أركان الدولة عن طريق الفتاوى الدينية التي استصدروها من بعض رجال الدين خدمة لأسيادهم، وشياطين نزواتهم فبادروا إلى الإتهامات الباطلة والتي تزعم أن الحاكم بأمر الله قد ادعى الألوهية.

ولا ندري كيف يدعى الإلوهية وهو القائل عن نفسه، ولآخر يوم من

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥.

حياته السياسية والدينية عبد الله ووليه أمير المؤمنين فنقرأ على النقود الفاطمية الذهبية التي صكت في عهد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله وحتى بعد غيبته العبارة التالية: عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله[١].

ولا تزال هذه العملات في المتاحف العالمية، وبيد بعض الأشخاص من أبناء الطائفة وغيرهم، وهي حجة ثابتة وقاطعة بأن الإمام الحاكم لم يدع الإلوهية كما روج لها المغرضون لهدم أركان الدولة، وللقضاء على الإمامة التي أحيت السنن وأعادت للإسلام مجده وأضاءت بنوره قلوب المؤمنين.

وبعد تلك الإتهامات المغرضة شمر الحاكم عن ساق الجد، وصمم على إعادة الأمور إلى نصابها، وعمل على استدعاء رجال من أتباع المذهب، موثوق في عقيدتهم وتمذهبهم السليم لكي يساعدوه في عودة الأمور إلى نصابها.

فكان أول من استخدمه لذلك، رجل فارسي اسمه ختكين الضيف[٢] الذي يعتبر قطباً من أقطاب المذهب كان يعمل مع البويهية الشيعية بالعراق ثم هاجر إلى مصر ولذا لقب بالعضدي منتسباً إلى عضد الدولة البويهي، الذي كان يعتقد في إمامة الفاطميين فعينه الحاكم داعية للدعاة ورد مجالس الدعوة إلى سالف الرسم، بعد أن قطعت ثلاث سنوات من ٤٠٠ هـ إلى ٤٠٣ هـ ومنحه لقب الصادق الأمين ـ مما يدل على رغبة الحاكم الشديدة في أن يبين

---

(١) ورد على أحد وجهي العملة العبارة التالية: لا إله إلا الله / وحده لا شريك له / محمد رسول الله / علي ولي الله. وعلى الوجه الآخر نقرأ: عبد الله ووليه / الإمام الحاكم بالله أمير المؤمنين، وعبد الرحيم ولي عهد المسلمين.
وجاء في العملات التي ضربت ببرقة: الوجه الأول: محمد رسول الله علي ولي الله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وعلى الوجه الثاني: الحاكم بأمر الله / أمير المؤمنين عبد الله المنصور أبو علي الإمام.

(٢) يحيى: ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

ختكين صدق الدعوة الفاطمية، ومواقف الإمام منها وقد بذل ختكين جهده في تنوير الدعاة لحقيقة الدعوة ومنزلة الإمام الحاكم فيها، فأرسل إلى المدينة يبحث عن كتب جعفر الصادق جد أئمة الفاطمية وقيل أن ذلك كان بأمر الحاكم في سنة ٤١٠ هـ فوجدت في دار جعفر كثير من علم الأئمة.

وكذلك استقدم الحاكم داعية آخر هو أحمد بن عبد الله في ٤٠٨ هـ الملقب بحميد الدين الكرماني نسبة إلى كرمان بإيران، وهو يعتبر شيخ فلاسفة المذهب ووصف على أنه حجة العراقين أي فارس والعراق وقد عينه الحاكم رئيساً لدار الحكمة دون أن يعينه رئيساً للدعوة لوجود ختكين المذكور وقد بذل الكرماني جهداً كبيراً في سبيل تقويم ما أعوج من الدعوة وكتب في ذلك رسائل عديدة، بلغ عددها تسعاً وعشرين، وصلنا بعضها، ولم يصلنا البعض الآخر، ففي رسالة مباسم البشارات يبين الكرماني ظروف المحنة وسوء حالة الدعاة، وظهور المنافقين، وصدق إمامة الحاكم وحقيقتها، وإن ما حدث هو بإرادة الله لإمتحان عباده، ولعل أهم ما وصلنا من الكرماني هو الرد على دعوى الفرغاني الأجدع، في رسالته المشهورة، بعنوان الرسالة الواعظة، تجمع موعظة وأجوبة عن مسائل المارق في الدين حسن الفرغاني الأجدع حاول فيها الكرماني بالمنطق وغيره أن يثبت العقيدة في الله الذي لا إله إلا هو، وإظهار الحاكم كشيعي مثالي، يعبد الله ويساعد الناس على فهم دينهم، وقد جاء في هذه الرسالة الموجهة للأخرم:

«وأما قول أصحابك: أن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه فقول كفر، تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال، هذا إن دعوا للإله المعبود غيرا، فيالجسارة على الله حين جعلوا له تعالى شريكاً ما أعظمها؟. والجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها؟ ولقد قالوا عظيماً، وافتروا إثما مبيناً وإن ذلك إلا كفر محض، فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد لله خاضع، وله طائع، يسجد لوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم، وباسمه يستفتح، وعليه في أموره يتوكل، وأمره إليه

يفوض والله تعالى قد فضله على خلقه، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه خليفة له في أرضه ووسيلة لعباده إلى جنَّته، وأوجب طاعته على عباده، وهو سلام الله عليه، يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه وكيف يكون معبوداً وهو جسم ذو ابعاض مؤلفة، ونفس ذات قوى مكلفة، يأكل ويمشي وينام ويستيقظ وتنطوي عليه الأحوال المتضادة من رضا وسخط وغم ومسرة وسقم وصحة، كغيره من البشر، وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه، كلا أن المعبود ليس إلا الإله الذي له يسجد أمير المؤمنين سلام الله عليه، يوحده ويسبحه، وعن النعوت والصفات يقدسه، وله يسجد من النبيين والأوصياء، والأئمة المتقين وتابعيهم، وإياه يعبد، وله يسجد من يخرج إلى الكون منهم ما دام عقل، وقاض عدل، الذي خلق السماوات بأفلاكها والنجوم بأنوارها، والأركان بطباعها والمواليد بأجناسها **﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾** (سورة فصلت: ٣٧).

غير أن الإمام الحاكم لم يطمئن إلى أن الأمور قد عادت إلى نصابها لجهة بعض المغالين المنافقين في الدنيا والدين، فقد عقد العزم على انقاذ المذهب والقيام بحركة إصلاحية، في عقائده التي شوهها المغرضون، وقد إستعان لأجل ذلك، بداعية فارسي اسمه حمزة بن علي بن أحمد الزوزني وهو من مواليد ٣٧٥ تخرج من جامعة جنديسابور، بفارس وكان عالماً كبيراً فاق أقرانه في العلوم الدينية والفلسفة الإلهية وحظي بمكانة عالية لدى الإمام الحاكم وقد لقب بهادي المستجبين كما استعان بأربعة من كبار الدعاة وهم:

١ ـ إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي وكان يلقب بالنفس الكلية وبهرمس الهرامسة لكونه عالماً وشاعراً وقائداً لجيوش الحاكم وله مجموعة من الرسائل الفلسفية التي لم تنشر بعد وقد فقد أكثرها وحرف بعضها.

٢ ـ محمد بن وهيب القرشي وهو ينتسب إلى البيت النبوي الكريم وكان يدعى فخر الموحدين لصدقه وعلمه.

٣ ـ سلامة بن عبد الوهاب السامري وسمي الشيخ المصطفى والسابق تكريماً له وإجلالاً لعلمه وتقواه وإخلاصه للدعوة.

٤ ـ علي بن أحمد السموقي، وسمي بهاء الدين ولسان المؤمنين وسند الموحدين نظراً لإخلاصه وجهاده في سبيل الله وكان عالماً تقياً وذب عن المسلمين الموحدين وقد عاصرهم أثناء محنتهم بعد غياب الحاكم وبقي في الدعوة حتى سنة ٤٣٤ هـ حيث أقفل باب الدعوة بعد أن وجد الظلم والتشريد لأبناء دعوته.

وكان هؤلاء الدعاة الأربعة يأتمرون بأمر الداعي الأكبر حمزة بن علي، فلا يحق لأحد منهم أن يؤلف كتاباً أو يفاتح أحدا ممن استجاب إلى الدعوة إلا بأمر الداعي الأكبر حمزة وقد عمل الجميع على إحياء السنن وإقامة الدعائم الإسلامية كل ذلك بتوجيه من الإمام الحاكم، وقد أخذوا ببعض مضمون تأويل دعائم الإسلام الذي ألفه النعمان بن محمد.

وذلك بتوجيه من الإمام المعز الذي أنشأ القاهرة وجامعة الأزهر وكان الدعاة المذكورون يحرمون الأخذ بالتأويل دون القيام بحرفية التنزيل لأن هو الأساس ولولاه لما كان ثمة تأويل وكانوا يعتبرون من يستقر عند التأويل فقط من الكافرين فعندهم إقامة الصلاة بأوقاتها واجبة، ولا يستقيم الدين بدونها مع تأويل كل حركة من حركاتها بمعان عرفانية تسمو بنفس المصلي إلى معارج الكمال عند نزع الحجب الكثيفة من النفس لتعود إلى الصفاء والشفافية وبمعنى آخر فإن الصلاة الظاهرة هي مثل وتأويلها ممثول فعلينا أن نقوم بالمثل لنتذكر الممثول.

وكان الدعاة يبحثون في الفلسفة وأبدوا بعض الآراء الفلسفية التي تتعلق بالإنسان والروح، ولم تصلنا هذه الأبحاث وقد وصل بعضها على شكل رسائل، وقد دخلت يد التحريف وأمعنت فيها تزويراً، وتعليقاً على هوامشها، مما جعلها بعيدة في معناها عن الحقيقة الإسلامية والتوحيدية، ومصدر هذا

التحريف هم الدعاة الذين ارتدوا عن المذهب التوحيدي فأرادوا تشويهه بالكذب والبهتان كالدرزي والبرذعي وغنام وغيرهم من أكابر المرتدين عن التوحيد والإسلام.

ومدارس التزوير في كل عصر وزمان يكون بعضها لبعض ظهيرا فلا نزال نسمع أو نقرأ من حين لآخر بعض الرسائل المنسوبة زوراً وبهتاناً للدعاة المذكورين وكلها تصب في خانة المحاولات اليائسة لإبعاد هذه الطائفة عن واقعها الإسلامي والعربي، وحجتهم أن كبير الدعاة هو فارسي الأصل، علماً بأن معاونيه الأربعة هم من القبائل العربية المشهورة.

وعلى أي حال فإن الدعاة بتوجيه من الإمام الحاكم لم يخرجوا عن كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الأئمة من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استجاب لهذا المذهب الجديد عدد كبير من الرجال والنساء في مصر وفي الشام، وفي نواحي وادي التيم، وبلاد صيدا وبيروت وحلب واليمن وما جاورهم وقد حصل صراع شديد بين أنصار المذهب الجديد، مع أنصار المرتدين وقتل نتيجة هذا الصراع الدرزي الذي كلما ذكره الموحدون (الدروز) يلعنونه لأنه جر الويلات على هذه الطائفة نتيجة كذبه ودسه وتزويره للحقائق ولا يزال له بعض المحبين من خارج الطائفة وداخلها ممن يرددون أقواله لغاية في نفوسهم المريضة.

وقد تشدد الدعاة في انتقاء التابعين لهم من الناحية الأخلاقية والدينية وكان ذلك ردة فعل للإنحدار الأخلاقي الذي كان سائداً في المجتمع المصري ـ مركز الدعوة ـ والإنهيار الديني الذي سببه كثرة الأموال والبذخ والعبث والمجون ولعل تدقيق بعض الشيوخ في معاملة المريدين جاء تشبهاً بمعاملة الدعاة لأتباعهم.

وإن دعاة المذهب قد اعتمدوا العفة في حياتهم والتقشف فلم تستهوهم المراكز الدنيوية، بل كان همهم إحياء السنن التي أمر بها أمير المؤمنين وفقاً

لكتاب الله وسنة رسوله، وقد كانت حياتهم كحياة السلف الصالح من الأنبياء والرسل والتابعين.

ومن هنا نجد أن تعاليمهم لا زالت ممزوجة بدماء الموحدين منذ أكثر من ألف عام وقد قال الدكتور عمر فروخ: «وكان للدروز في حركتهم الدينية عبقرية عملية تلفت الأنظار، إن الحركة الدرزية التي بدأت منذ أوائل القرن الهجري الخامس وأوائل القرن الحادي عشر الميلادي قد تجلت في مظهرين: في مظهر ديني ليس هنا مجال الكلام عليه وفي مظهر إجتماعي سنعالج منه موضع الشاهد فقط.

لقد استطاع المذهب الدرزي أن يقر في نفوس أتباعه نظاماً أخلاقياً عملياً يندر أن تجد مثله بمثل هذه القوة وذلك الإستمرار عشرة قرون متوالية، ويظن أن حسن الأخلاق في المذهب الدرزي جزء من الدين، والدرزي متصف بالعفاف والصدق وإثبات الفضائل، وليس مكان العبقرية أن يأمر المذهب الدرزي بهذه الأخلاق التي أمرت بها المذاهب كلها وأتت بها الفلسفات جميعها ولكن مكان العبقرية أن هذا الأمر لم يفقد سلطته إلى اليوم.

على أن تعليل ذلك ليس صعباً، فإن المذهب الدرزي مذهب إجتماعي أيضاً وقد عمل على أن يكون أتباعه «بيئة مغلقة» ونحن نعلم في علم الإجتماع أن أهل البيئة المغلقة أشد تمسكاً بالأخلاق وبالعبادات القوية من أهل البيئات المطلقة.

الفصل السادس

مصادر الإتهامات للموحدين

إن الإتهامات التي صدرت ضد الموحدين «الدروز» ترجع إلى العهد العباسي الذي كان معاصراً للدولة الفاطمية. وقد امتدت هذه الأخيرة في توسعاتها حتى لامست حدود دولة العباسيين ووصلت إلى السند والهند، وضاقت الدولة العباسية ذرعاً بالدولة الفتية وحكامها الميامين الذين حملوا لواء الإسلام وشهروا سيوف العدل، وقوموا الأخلاق الذي هو أساس الأمم، والمجتمع العباسي على دين ملوكه في البغي والعدوان، والإنحلال الخلقي.

وبدافع التمسك بالحكم والسلطة قفز العباسيون إلى منصة الإتهامات لتصنيع الأكاذيب والإفتراءات على الدولة الفاطمية التي طلعت شمسها من الغرب وسارت جحافلها إلى الشرق لتقويم الإعوجاج ولبعث روحية الدين في الشعوب الإسلامية.

وقد ثارت ثائرة العباسيين على هذا الخطر الجديد القادم إليهم من الدولة الفاطمية، وأمر الخلفاء العباسيون بمقاومة الفاطميين بإستصدار محضر يكفرهم ويشوه حقيقتهم، وضغط الخلفاء على علماء السوء ورجال الدين المنحرفين وأصدروا سنة ٤٠٢ محضراً يتضمن إرادة اعداء الفاطميين وقد أصبح هذا المحضر سنداً لما بعده من محاضر وفتاوى حتى يومنا هذا دون أن يكلف المفتي نفسه التحقيق العلمي والموضوعي لمحضر العباسيين وأصبح

معيناً لا ينضب يستقي منه المغرضون والجواسيس والمخربون لتفريق الإسلام إلى شيع وقبائل تتناكر وتتقاتل.

والمحضر الثاني صدر عام ٤٤٤. وكان موجهاً للإسماعيلية ولا علاقة له بالموحدين المنشقين عنهم منذ عام ٤١١ هـ تاريخ غيبة الحاكم.

والثالث صدر عام ٤٨٥ هـ وكان موجهاً أيضاً للإسماعيلية.

يقول محضر عام ٤٠٢ هـ الموقع عليه من بعض الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة:

أولاً: إن الفاطميين لا ينتسبون لفاطمة الزهراء، وليسوا من أهل البيت بل هم ديصانة ينتسبون إلى ميمون بن ديصان القداح.

ثانياً: وقال: إنهم كفار وزنادقة وفساق وملاحدة، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية[١].

وقد كتب الأستاذ فؤاد الأطرش في كتابه «الموحدون الدروز» ما يلي: وبوحي من بلاط بني العباس المخطط لإصدار محضر عام ٤٠٢ هـ ضد الفاطميين لعب اللسان العلمي التابع له نفس الدور والاسلوب في التشكيك بمذاهب الإسلاميين وقد جاء ما أعلنه هذا اللسان مكملاً للخطوط الرئيسية لسياسة البلاط العباسي ومن أجل نفس الغاية.

يقول عبد القاهر البغدادي صاحب كتاب «الفرق بين الفرق» والمتوفي عام ١٠٢٨م ما يلي:

واعلموا ـ أسعدكم الله ـ أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر

---

(١) الموحدون الدروز ـ تهم وتارخ وحقائق ـ الأستاذ فؤاد الأطرش ٦٠.

أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان. . .

ليتأمل القارىء، بهذه الصرخة وبهذا التحليل البغدادي. . . فالباطن وإن كان لا يعنينا من الناحية الدرزية، لا يعقل مطلقاً أن يكون أسوأ من الدجال، كما يزعم البغدادي. . . لأن الباطن من خلال مفهومه، باطن من أجل الله يؤمن فيه على طريقته الخاصة بينما الدجال كما هو معروف، عدو الله عن عمد وتصميم. . .

إن محضري بلاط بني العباس، في عامي ٤٠٢ و ٤٤٤ هـ وما كتبه البغدادي المتوفي في عام ١٠٢٨ عن الباطنية، خضعوا لعملية إعلام فاسدة وخطيرة في المجتمع الإسلامي العربي.

ولا يخفى على القارىء الكريم أن عملية الإعلام هذه كانت أخطر بكثير على تواجد الدروز من منطوق التهم نفسها، لأنها نقلت السموم من واقع المفهوم السياسي إلى المفهوم الشعبي. . .

وإلى هذا الإعلام الكاذب والفاسد والمؤسف أشار الدكتور عبد المنعم ماجد بقوله عن محضر عام ٤٠٢ هـ.

«قرأ على المنابر، وأرسل إلى جميع ولايات الخلافة العباسية تشكك في نسب الفاطميين، ولكن لم يحدث أن ظهر طعن رسمي قبل ذلك، وقد حرص الخليفة العباسي على أن يأخذ توقيعات كبار الأشراف العلويين والفقهاء والعلماء في بغداد، وذلك حتى يحوز الطعن الأهمية، ولا يتسرب الشك إلى الناس. . . وقد رأى المؤرخ الحصيف ابن خلدون في مقدمته، إن العباسيين طعنوا في نسب الفاطميين، بسبب أن الفاطميين شاركوهم دولتهم أما من وافقهم على ذلك فهو من باب التزلف، وإن شهاداتهم كانت على السماع، تصديقاً لأحاديث ملفقة. . .

وثمة مقالة من الأمير الهولندي Mamour يناقش- فيها سبب ظهور هذا

الطعن في عهد الحاكم، وذلك في كتابه (Polemics on the origin of the Fatimi caliphs) تتلخص في البنود الآتية:

١ ـ الكراهية المتأصلة في العباسيين لمن هم من نسل علي وفاطمة.

٢ ـ المرارة من مقاسمة الفاطميين أملاكهم، وذلك حينما هددوا سلطانهم.

٣ ـ الحقد الذي تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين كمركز للعلم والثقافة والفن والأدب الإسلامي.

٤ ـ الخوف من امتداد سلطان الفاطميين لما بقى في أيديهم.

٥ ـ الفرصة مواتية لإختلاف العلويين وتفرقهم بين فرق مختلفة[١].

٦ ـ إمكان التأثير على بعض العلويين في بغداد وضمهم لجانبهم.

٧ ـ كذلك البهويهيون لا يمانعون لأنهم قد نالهم الضعف فقدروا الخطر الفاطمي حق قدره.

٨ ـ إمكان إثارة العناصر السنية التي توجد في البلاد التي امتلكها الفاطميون.

٩ ـ إعلان هذا المحضر من شأنه أن يضعف نفوذ الفواطم ولا ضرر منه على العباسيين.

١٠ ـ ملاءمة الوقت لوجود خليفة متعصب هو الحاكم[٢] وهكذا نرى أن العباسيين قد استخدموا موالين في سبيل السياسة وشنعوا الأقاويل على الشيعة بصورة عامة بعد ملاحقة أئمتهم وقتلهم، كما استصدروا محاضر

---

(١) صدر كثير من المؤلفات التي تشوه عقيدة العلويين لإبعادهم أيضاً عن واقعهم العربي والإسلامي.

(٢) الحاكم المفترى عليه للدكتور عبد المنعم ماجد ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

الطعن بالفاطميين بصورة خاصة وأصبحت التهم العباسية مصدراً لكل فتوى مغرضة فيما بعد.

وكانت هذه الفتوى بمستوى الإنحطاط العباسي، وذلك الإنحطاط الذي لم يعرف له حدود.

فالمجتمع العباسي، هذا الذي أفسد فكر أجيال مجتمعنا الإسلامي، وعربدته واستهتاره وكفره. لم يعد يكتفي بمجونه في المرأة وبإفساده للخلق بل تعدى ذلك إلى التغزل بالغلمان حتى أن بعض قادته كان عاشقاً مولهاً قال الأستاذ أحمد أمين:

«أسر غلام تركي لعز الدولة فجن جنونه عليه، واشتد حزنه، وامتنع عن الأكل، وأخذ يبكي واحتجب عن الناس وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرد الغلام إليه، وكثرت القصص عن الغلمان. . .

وفي بغداد في تلك الحقبة التاريخية، جاع الفقراء وكرهها أهل الورع والكلام والزهاد، وعلتهم في الكراهية ما عاينوا بها من الفجور والظلم والفسق. . .

ويقول بشير بن الحارث: بغداد ضيقة على المتقين لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها. . .

ووصف أعرابي البصرة فقال: «دخلت البصرة فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبيد، إقبال حظهم ادبار حظ الكرام، شجر أصله عند فروعه، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر. . .

وروى الطبري أن المعتصم دعا أبا الحسين إسحٰق بن إبراهيم وسأله عن وضعه مع الأتراك، وسبب عدم وفائهم له: قال إسحٰق: يا أمير المؤمنين نظر

أخوك إلى الأصول فاستعملها فانجبت فروعاً، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول لها[1].

أليس غريباً تصديق محضر يتضمن فتوى من قادة هذا هو مستواهم الخلقي والديني؟.

وهل أغرب من اعتماد هذا المحضر من قبل علماء وفقهاء مسلمين فيما بعد دون تمحيص وتحقيق؟.

ثم جاءت فتيا الشيخ ابن تيمية في عهد المماليك تعتمد محضر العباسيين وتكرسها وتزيد عليها حقداً وتعصباً، فأصدر في عهد الناصر المملوكي بأن الدروز والنصيرية ليسوا إسلاماً وأنهم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم».

وفي رأينا أن هذا النوع من الفتاوى لم تصدر لوجه الله ولكن خدمة لأسياد الشيخ وهم بقايا العبيد الذين أسلموا بحكم التملك وسادوا على البلاد بالغدر والتآمر مع جواري القصور وعرفت بلادنا الإنحطاط الأخلاقي في أبشع صوره ومعانيه فكان للشيخ شرف التعاون معهم وإصدار الفتاوى ضد الشيعة بصورة عامة وضد الدروز والعلويين بصورة خاصة، وكل وعاء بما فيه ينضح.

ثم جاء الأتراك وهم من سلالة الأتراك الذين عبثوا في الدولة العباسية، والتف حولهم دعاة السوء الذين رافقوهم بعد أن وافقوهم على إبادة الشيعة تنفيذاً للمخطط العباسي والمملوكي فجاء على لسان كمال صليبي قوله:

ففي عهد المماليك تحول إلى المذهب السني في بلاد الشام كثير من النصارى والشيعة تفادياً للإضطهاد المستمر وكان معظم المسلمين من المذهب الشيعي.

---

(١) الطبري ١٠ / ١٥٥ كتاب الدروز ـ مؤمرات ـ الاستاذ فؤاد الأطرش ص ١٣٥.

ثم جاء السلطان سليم العثماني الذي عرفه مؤرخ دمشق بقوله: كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وألطفه وكان شديداً على وزرائه قتل منهم سبعة لأسباب تافهة.

وأضاف القرماني: «خنق أخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفراً[1].

وقال الحصري: «وكان السلطان سليم أول سلطان عثماني يوجه قواته ضد المسلمين»[2]

«قام بإنقلاب على والده بايزيد التقي، والملقب بالولي، ووجه فتوحاته ضد الدول الإسلامية».

ويخبرنا الحصري أن هذا السلطان حصل على فتوى تجيز إبادة الشيعة فقضى عليهم في مملكته، كما أنه حاربهم في إيران. وقال أمين الريحاني: «باشر هذا السلطان العثماني فتوحاته بقتل أربعين ألفاً من الشيعة في الأناضول (النكبات ص ١١١)..

وقال عنه المؤرخ ابن إياس: «كان السلطان سليم سفاحاً سكيراً لواطاً لا يهمه بعد فتوحاته وقتل الشراكسة غير لذته وسكره وإقامته في المقياس بين الصبيان المرد» (النكبات: ص ١١٣).

هذا نمط من سلاطين بني عثمان الذين أخضعوا رجال الدين وألزموهم باستصدار فتاوى تقضي بإبادة كل من يقف في طريق طموحاتهم الشريرة وشهواتهم الرخيصة. وقال الحصري: «كان السلطان العثماني يتمتع بسلطات مطلقة لا يحدها أي حد. ونظرياً كانت أحكامه مقيدة بأحكام الشريعة الإسلامية إلا أن رجال الدين قلما كانوا يتأخرون عن إيجاد الأحكام وإصدار

---

(١) خطط الشام ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ص: ٤٠ وما بعدها.

الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على أوامرهم وتصرفاتهم صفة الشرعية وهذا غيض من فيض من صفات الحكام والمحكومين من رجال الدين مما يجعلنا نردد القول:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ومن هنا عتبنا كبير على بعض الفقهاء العصريين الذين لم يأخذوا بواقع الموحدين لاستصدار فتاوى عادلة بل يأخذون بأقوال السلف الذي إختلط قوله بتعصب ذميم، وإنحطاط مريب لتفريق وحدة المسلمين... ومن يدري؟. فيمكن أن يكونوا مكلفين من الصهيونية العالمية ودول الإستكبار لتنفيذ مخططاتهم الجهنمية.

ونتساءل من هو المسلم؟. فإن كان الجواب هو من يشهد إن لا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم ويزكي ويحج ويؤمن بكتاب الله وسنة رسوله.

فلماذا لا نعتبر الموحدين مسلمين مع أن بلدهم كان عامراً بالمساجد، والمدارس التي تعلم القرآن الكريم ويصومون ويصلون؟.

ولماذا ألفتيا التركية التي أشار إليها المرحوم الشيخ الدكتور محمد علي الزعبي تعتمد من حين لآخر حسب الأهواء السياسية والتخريبية وقد تضمنت ما يلي:

«إن من يقولون عن أنفسهم مسلمين إسماعيليين ليسوا مسلمين في الحقيقة، فلا يغرنَّ الدولة مساجدهم هذه وجوامعهم ومآذنهم وزكاتهم ووجود القرآن وكتاب الدعائم في بيوتهم، إذ هم دروز إباحيون سفاكون عباد عجول، وما مساجدهم وجوامعهم ومدارسهم التي يدرسون بها القرآن الكريم والأحاديث النبوية والفقه وحجهم وزكاتهم وشعائرهم الإسلامية في الزواج

والوفاة والختان إلا نوع من المجاملة وضرب من المسايرة»[1].

فتأمل أخي القارىء... إذا كان ما ورد أعلاه لا يدل على إسلام الموحدين «الدروز» فلنقرأ الفاتحة على العقل والمنطق وندعهما في ذمة الله إلى يوم القيامة.

المجتمع التوحيدي

المذهب الإسلامي التوحيدي هو الرابطة الأساسية التي تربط أفراد المجتمع التوحيدي، ويعتبرون أنفسهم صفوة المسلمين وحماة الإسلام، ويعتزون بانتسابهم للمدرسة التوحيدية المحمدية والتي كانت تضم علياً (ع) وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأبا ذر الغفاري والمقداد رضوان الله عليهم أجمعين، كما يعتزون بنسبهم الفاطمي وبأئمتهم التي انتهت بعد غيبة الإمام الحاكم.

ومارس الموحدون سياستهم المستقلة مدة من الزمن، وتعلقوا بالأرض والموحدون كانوا وما زالوا طالبي السلامة والكرامة، ويقاتلون بشراسة نادرة في سبيل تحقيق ذلك، ومن مقتضيات سلامتهم وكرامتهم تحقيق العدالة الإجتماعية فيما بينهم وبين مواطنيهم من بقية أبناء المذاهب والأديان الأخرى.

والمجتمع التوحيدي ينقسم إلى قسمين:

أولاً: فئة العقال وهم الملتزمون بالدين والقائمون بالصلاة في أوقاتها والصائمون لله عزوجل، والعاملون على وحدة المجتمع التوحيدي ويتميزون بالوقار والسكينة والتأني في القول والفعل، والإعتدال في سلوكهم، فيكرهون التطرف والتهور، ويجاهدون في ضبط النفس وكبت الغضب وجميع المشاعر العنيفة، والبعض يذهب في التقشف حداً بعيداً، فلا يهتمون بجمع الحطام

---

(١) الدروز ظاهرهم وباطنهم ص ٤٠.

ولا يتطلعون إلى المراكز الدنيوية فهمهم خلاص نفوسهم من شهوات الدنيا وعلائقها، ويؤمنون بأن إرتقاء النفس إلى عالم العقل لا يتم إلا بتجريدها من نزواتها والتغلب عليها، حتى تنال شرف المعرفة العلوية، وتصبح تبعاً للعقل عالمة عاملة فيما يريده الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وسلم والأئمة الأطهار.

ثانياً ـ الجهال: وهم الفئة الزمنية التي لا تتصف بصفات العقال لجهة ضبط النفس عن الشهوات والغضب والجاهل يتصف عادة بالتهور والهيجان العاطفي والحمية المتطرفة والإنسجام مع مباهج الحياة وملذاتها الحسية.

ونجد أن فئة الجهال تلتزم في أكثر الأحيان بتوجيهات العقال ومن هنا نجد أن الزمنيين (الجهال) لا يمارسون الطقوس الدينية إلا بأذن العقال وبعد استئذانهم والعقال (الأجاويد) كثيراً ما يشترطون على المريد المتدرج بعض الشروط الصعبة كأن يلتزم بلباس معين وعليه أن يحلق شعره أسوة بالصحابي الجليل سلمان الفارسي ويحرمون عليه التدخين وشرب المسكر قليله وكثيره، وعليه أن يكون طاهراً في ظاهره وباطنه ولا يسمح له إذا أخل ببعض الشروط من إقامة صلاة السنة وحضور مجالس الذكر.

(وللعقال نفوذ واسع في المجتمع التوحيدي فهم يراقبون بحرص الأخلاقيات والتصرفات، كما أن لهم صوتاً مسموعاً في الشؤون الزمنية وللعقال دور كبير في صنع السلام، فبواسطتهم كثيراً ما سوِّيت منازعات وعولجت عداوات وتمت مصالحات بين العائلات والجماعات المتخاصمة. وكان يستعاض غالباً بدور العقال التوفيقي عن اللجوء إلى المحاكم للفصل في الإدعاءات المتضاربة والمتعلقة بحدود الملكية وحقوق مياه الري والميراث وغيرها من الشؤون العائلية والقروية، ونظراً لإهتمامهم النشط بخير الجماعة وكثرة التزاور فيما بينهم، ولو بعدت المسافة فقد كان العقال قوة توحيدية ساهمت في تضامن المجتمع الدرزي وكثيراً ما شارك العقال في الثورة على الظلم والإستبداد في زمن المماليك والأتراك والفرنسيين وفي كل وقت

الفصل السابع

طقوس الموحدين

للموحدين طقوس يقيمونها في بعض الجوانب الإجتماعية كصلاة الجنازة والصداق والوصية ونعرضها تباعاً ولا تخفى على اللبيب بعض الفوارق بين هذه الطقوس وبين طقوس بعض المذاهب الإسلامية الأخرى وقد أصدرت مشيخة عقل الطائفة الدرزية كتيباً أثبتت فيه هذه الطقوس وجاء فيه :

صلاة الجنازة[1]

عندما يحين موعد الدفن يجهز ذوو الفقيد الميت بحضور أحد شيوخ الدين وبعد حمل الجثمان ووصوله إلى باب المنزل يرفع الشيخ صوته قائلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

وعندما تطل الجنازة على الجمهور، وقبل سيرْ الموكب يقرأ شيوخ الدين الفاتحة جهراً بعد التعوذ بالله ثم يتقدمون الجنازة مهللين ومرددين :

لا إلــــــــــــــــــــه إلا الله لا إلــــــــــــــــــــه إلا الله

لا إلــــــــــــــــــــه إلا الله دائــــــــم بــــــاقٍ وجــــــه الله

فيرد الشيوخ السائرون في الصف أو الصفوف التي تلي الصف الأول :

---

(١) الصلاة على الميت فرض كفاية يسقط عن الكل بأداء البعض.

لا إلـــــــــــــــه إلا الله   لا إلـــــــــــــــه إلا الله
لا إلـــــــــــــــه إلا الله   محمـــــــــد رســـــــــول الله

وهكذا حتى الوصول إلى المكان المعد للصلاة على الجنازة، عند ذلك يتوقف الشيوخ عن الذكر، وتوضع الجنازة، حيث يكون رأس الميت إلى جهة الغرب، فيتقدم المصلي ويقف مستقبلاً القبلة حذاء صدر الميت وبعد أن ينوي الصلاة[1] يرفع يده اليمنى إلى أذنه كمن يؤذن ويقول:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

إن الله وملائكته يصلون على النبي

يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً. اللهم صلِّ وسلم على أشرف الأمم، سيد العرب والعجم، وإمام مكة وزمزم والمدينة والحرم. سيد الأنام ومصباح الظلام وخاتم الأنبياء والرسل الكرام نبينا محمد[2].

اللهم زده كرماً وشرفاً ومهابةً وإجلالاً وتعظيماً. ورضي الله تبارك وتعالى عن ساداتنا أصحاب رسول الله أجمعين.

هنا ينزل المصلي يده ويكمل قائلاً:

رحم الله من نظر فاعتبر، وأمر فأتمر، وزجر فازدجر، ومثل هذا الحق المبين انتظر.

انتذروا واعتبروا يا أولي الألباب، الحكم لله الواحد الوهاب.

---

(١) النية هي الركن الأول من أركان الصلاة.

(٢) وهنا قد يرتفع صوت أحد الشيوخ قائلاً: اللهم صل وسلم عليه، لتذكير الآخرين بالصلاة عليه سراً دون جهر، لأن الموحدين يفضلون الصلاة على النبي في أنفسهم أو بصوت خافت ويذكرون الله دون الجهر بالقول.

معكم جنازة رجل[1] مسلم من أهل التوحيد والإيمان والحقيقة والبرهان، مندرج بالوفاة إلى رحمة الملك الديان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، واسكنه فسيح الجنان رحمه الله.

الصلاة على الجنازة الحاضرة... أثابكم الله، فسبحان الدائم الباقي، الحي الذي لا يموت...

هنا يتقدم الإمام إلى يمين المصلي ويتقدمه قليلاً وينوي الصلاة[2] ويكبر أربع تكبيرات يتبعه في ذلك المصلي والجماعة الواقفون في الصف خلفهما، يرفع الإمام يديه في كل واحدة منها محاذياً بابهاميه شحمتي أذنيه، ويفتتح الصلاة بالتكبيرة الأولى، فيقول المصلي، **الله أكبر**، ثم ينزل الإمام يديه ويضع يده اليمنى على اليسرى تحت صدره ويقرأ الفاتحة سراً[3] ثم يكبر التكبيرة الثانية، فيقول المصلي، **الله أكبر**، ثم ينزل الإمام يديه ويصلي على النبي سراً[4] ثم يكبر التكبيرة الثالثة فيقول المصلي: **الله أكبر** ثم ينزل الإمام

---

(١) تتغير كلمة رجل إلى امرأة إذا كان الميت امرأة وإلى طفل إذا كان الميت طفلاً وإلى طفلة إذا كان الميت طفلة وبحسب ذلك تتغير النعوت والضمائر في الكلمات. التي تليها.

(٢) يقول الإمام سراً اللهم إني نويت أن أصلي لك فرض كفاية إماماً بجماعة مستقبلاً القبلة وادعوا لهذا الميت فيسرها لي وتقبلها مني.

(٣) المأموم لا يقرأ بل يستمع وينصت، إذ من كان له امام فقراءة الإمام له قراءة وحظ المقتدي الانصات والاستماع، لأن الإستماع فرض بالنص..

(٤) للقول والدعاء في صلاة الجنائز وجوه يكثر عددها، مما يدل على أن ليس منه شيء مؤقت وجملة ذلك، ان يكبر المصلي، ثم يحمد الله ويثني تعالى بعد التكبيرة الأولى، ثم يكبر الثانية فيصلي على النبي وعلى آله، ثم يكبر الثالثة فيدعو للميت وللمؤمنين ثم يكبر الرابعة ويسلم... والدارج المألوف بعد التكبيرة الأولى «تقرأ الفاتحة سراً» وبعد التكبيرة الثانية يصلي على النبي وآله وبعد التكبيرة الثالثة، يدعى للميت بما تيسر من أنواع الدعاء وأقله «اللهم إرحمه» إذا كان =

يديه ويدعو للميت سراً، ثم يكبر التكبيرة الرابعة فيقول المصلي: الله أكبر ثم ينزل الإمام يديه ويسلم محولاً وجهه يميناً ويساراً وهو يقول علناً غير رافع صوته.

«السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، اللهم أقبلنا وتقبل منا بحرمة الفاتحة، يا حي يا قيوم.

وتقرأ الفاتحة سراً، ويجهر في أخرها، الذي هو: ولا الضالين آمين».

ثم يقرأ الإمام والمصلي والجماعة علناً:

اللهم اجعلنا من خير الفريقين من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومن الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول، رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق واكن من الصالحين* ولن يؤخر الله نفساً إذ جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾.

وهنا يحمل الجثمان للدفن يرافقه أحد رجال الدين، لتلقين الميت في حين يهلل المصلون بالذكر والدعاء الآتي:

لا إلـــــه إلا الله لا إلـــــه إلا الله
لا إلـــــه إلا الله محمـــد رســـول الله
صلـــى الله عليـــه وسلـــم
هـــب لنـــا منـــك الـــرضـــى واعـــف عنـــا مـــا مضـــى
واكفنـــا شـــر القضـــاء مـــولانـــا يـــا مـــولانـــا

= الميت رجلاً «واللهم إرحمها» إذا كانت امرأة وفي الصلاة على الطفل يقال، اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وأجراً.

لا إلـــــــــــــــه إلا الله	لا إلـــــــــــــــه إلا الله
لا إلـــــــــــــــه إلا الله	محمـــــــــد رســـــــول الله
صلـــــى الله عليـــــه وسلــــم
كلنـــــا نطلـــــب رضـــــاك	مـــا لنـــا مـــولـــى ســـواك
قـــد دخلنـــا فـــي حمـــاك	لا تخيبنـــا حـــاشـــاك
لا إلـــــــــــــــه إلا الله	لا إلـــــــــــــــه إلا الله
لا إلـــــــــــــــه إلا الله	محمـــــــــد رســـــــول الله
صلـــــى الله عليـــــه وسلــــم

وبعد استقرار الجنازة بالمدفن[١]، تقرأ بعد التعوذ بالله، بعض سور القرآن تجويداً، ويحسن الإقتصار على قراءة السور الثلاث الآتية:

الفاتحة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوءاً أحد﴾.

تكرر قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرات ومقرونة بمسح اليد اليمنى على الوجه تبركاً حين لفظ «هو الله أحد.

---

(١) من السنة أن يقول من يدخل الميت القبر: «باسم الله، وعلى ملة رسول الله».

سورة التكاثر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾.

ثم يختم أحد الشيوخ بقوله:

صدق الله العظيم وبلغ رسوله النبي الكريم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فيقول الجماعة: آجركم الله أجر المحسنين.

وبهذا تنتهي مراسيم صلاة الجنازة ويشرع بتعزية أهل الميت.

الصداق

هو عقد زواج بين الخطيبين كما هو مبين في صورته، وقد نظمها مكتب مشيخة العقل عقود الزواج على أوراق خاصة تعطى لذوي العلاقة عند الطلب وكذلك الأمر بالنسبة للقضاء المذهبي الدرزي.

ويذيل عقد الزواج بتوقيع الخطيبين أو وكلائهما مع عدد من الشهود لا يقل عن أربعة من المقبولي الشهادة وممن يوقعون بخطهم.

وإذا لم يكن الزوج قادراً على أداء حق الزوجة، فللزوجة أن تطلب كفيلاً بالمبلغ يوقع في الصداق.

بعد كتابة العقد، تقرأ سورة الفاتحة، ثُم سورة الإخلاص ثلاث مرات تبدأ كل منها بالبسملة ثم تتلى خطبة الزواج التالية.

خطبة الزواج[1]

الحمد لله الذي أبدع الكائنات وأفاض من رحمته الخيرات، وخلق الإنسان على أحسن صورة فكان أشرف المخلوقات سبحانه وتعالى عن وصف الواصفين وإدراك الأنام والصلاة والسلام على سيد المرسلين في كل بدء وختام.

وبعد فإن الزواج سنة من سنن الأنبياء وشرعة من شرائع البقاء. . . وصون عن الفحشاء ووقاية من رب الأرض والسماء قال تعالى: **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**.

فاسأله تعالى أن يبقى بين الزوجين المحبة والوداد وأن يرزقهما النسل الصالح من الأولاد، وأن يريهما الأحفاد وأن يوسع عليهما الرزق وأن يحفظهما من مكايد الخلق، وأن يبارك هذا العقد الميمون إن شاء الله.

عندئذٍ يُسلم الزوج أو وكيله الصداق من الكاتب ويقترب من وكيل الزوجة فيسلمه إياه ويتصافحان.

الوصية

لا بد من التنويه بأن حرية الإيصاء عند طائفة الموحدين مطلقة فالموحد يوصي ما يشاء لمن يشاء وهذه صورة الوصية.

يا ولي الهداية اسألك العناية

بسم الله الرحمٰن الرحيم وهو حسبي وكفي والصلاة على نبيه المصطفى، أما بعد، فقد دعيت أنا فلان من بلدة. . . من قبل. . .

---

(١) الزواج محرم بين الموحدين وغير الموحدين لأسباب لا يتسع المجال لذكرها.

فلان.... من بلدة... وطلب إليَّ كتابة صك وصيته طائعاً مختاراً سليم العقل مستكمل شروط اللياقة القانونية فأوصى: بكذا وكذا لفلان... وأوصى لفلان.... بكذ وكذا... إلخ....

وتختم الوصية بالعبارة التالية: «وقد تلوتها عليه... أو عليها... بعد إتمام كتابتها تفهم مضمونها واستحسنها وأقرها وأصر عليها.

وبعد موافقته وقعها بخطه (أو بصمها بإبهام يده) وشهد شهودها.

تحريراً في ...

إمضاء الموصي	إمضاء كاتبها
أو بصمة أبهامه	شهود الحال

الفصل الثامن

التوحيد[1]

يعتقد الموحدون «الدروز» إن التوحيد قديم قدم الكون، وهو مسلك عرفاني، صعب المنال، وقد تضمنته كل شريعة، وهو يختص بالخاصة المتطهرين والشريعة تكون للعامة من الناس.

غير أن التوحيد، لم يكتمل نموه من سالف العصور مروراً باليهودية والمسيحية إلا بعد ظهور الإسلام وعلى يد الأئمة المعصومين، الذين حملوا سر التوحيد، ولم يتناوله منهم غير عباد الله الخلص.

ولعل هذا السر كان ولا يزال عبر العصور مستهجناً في معناه، ثقيلاً على البعض وبخاصة الجهلة والسبب في ذلك.

---

(١) التوحيد لا يصح إلا بالتوجه إلى الواحد الأحد بالكلية. وهذا التوجه لا يحصل إلا بفناء العبد عن ذاته وعن كل غيرية، ولا يبقى إلا الواحد الأحد. والتوحيد يثمر الكرامات على أنواعها إذا كان توحيداً حقاً. وذلك أن الموحد الحق حبيب الله. وقد حدث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه...».

أولاً: «إن عامة الناس لا يهتمون عادة فيما يعود لحقائق الوجود الأخيرة، ولا يجذبهم هذا الاستعلاء في معراج معرفة البشرية والألوهية، ولا تستهويهم هذه التجربة في مجال الإنفتاح على أسرار هذا الوجود: تماماً كما أن غلبة الناس الساحقة لا يعنون بمعرفة نظريات العلم الأخيرة وما تكتشفه من حقائق بسيطة وعناصر عجيبة واستطرادات واعتمالات، يقف العقل في موازاتها في الدهش والإعجاب أحياناً، وفي الذهول والتسبيح دائماً وأبداً. وذلك لسببٍ بسيط، هو أن مواهب الإفهام تختلف وتتميز في إدراكها، وأذواق القوم تتنوع في الرغبة والطلب ولأنهم في معظم ظروفهم، يحجبهم عن استقصاء الحق الأخير في كل شيء ما هم عليه من استقطاب داخلي أو انجذاب خارجي.

ثانياً: لأن مسلك العرفان في كل شريعة وفي كل بلد، وفي كل دين، عبر العصور، يتباين من حيث الإنطلاق والإعتماد مع نهج الشريعة المعروف، فالأول يعتمد المعرفة والكشف الأخير عنها، والثاني يعتمد الإيمان، فالأول يستند إلى العقل الأرفع والثاني يرتفع بجناحي القلب والعمل، ومن لم يصح له الإرتقاء إلى مرتبة المعرفة، فيجب أن يبقى في حمى الإيمان وفي صيانة مبادئه وطقوسه ضناً بمصلحة المؤمن الحقيقية وحفاظاً على حريته في الإختيار، وإحتراماً لما توجه إليه في قدرة استيعابه.

وإنما العبادة على قدر رفعة العقول، وقابلية الإفهام وانفتاح القلوب لآلاء نعمة التعبد والقربى، فمن لا يؤمن باديء ذي بدء وفي أول المطاف وقبل الولوج من الباب العسير فكيف يستطيع المطالبة بضرورة كشف معرفة اليقين؟.

ثالثاً: لقد اتفق الجميع، منذ أقدم العصور، على إبقاء هذه المسالك العرفانية بعيدة عن نظر الجهلة والمتطفلين، وحتى عن العلماء ـ في المعنى الزمني للكلمة ـ والمتفقهين، خوفاً من تشويهها وضياع حرمتها، وانكشاف

معانيها ودلالتها على غير جدوى لمن لم تتحرك به نسائم الروح في طلب هديها.

وبهذا افتى إمام الإسلام الأكبر، الشيخ أبو حامد الغزالي، في جوابه على أحد السائلين: «ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعباً، تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين، وقرعت باباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يكشف ويفشى، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار.

ويضيف الإمام الغزالي مستشهداً: «لقد قال بعض العارفين:

إفشاء سر الربوبية كفر، بل قال سيد الأولين والآخرين محمد (ص).

«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الإسرار على وجه الإسرار» (مشكاة الأنوار ص ٣٩ ـ ٤٠ طبعة القاهرة ١٩٦٤).

وقد ورد في الآية القرآنية الكريمة، قوله تعالى: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا**﴾ «أي أن الراسخين في العلم الظاهر لا يعلمون تأويله»[1].

والمسلك العرفاني التوحيدي لا ينفصل عن الدين بل هو بمثابة الروح من الجسد فهما يتكاملان ويتوافقان دائماً وأبداً في جميع الأمكنة وعبر العصور:

«وهما من معين الوحي ذاته، أو الدين وجه منعكس، في معتقد العامة وفي الشريعة، من ذاك العرفان الأصيل، على قدر ما تستوعبه توجهات العقول وبصائر القلوب، ولا يتم في الظاهر عرفان إلا بالإستناد والإرتكاز إلى

---

(١) أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية للدكتور سامي مكارم) ص ٦٤ ـ ٦٥.
الغزالي: مشكاة الأنوار ص ٣٩.

محتوى كتب الشريعة والباطن فيها وفي الحفاظ على سننها وفروضها وتكاليفها المعنوية وحتى الظاهرة منها.

لكي يتوافق نهج التصرف والتفكير والعاطفة مع واقع الصدق الداخلي، ولا توحيد بدون الصدق، وحتى التكاليف الجسدية الظاهرة يصح ممارستها ويتوجب معنوياً ذلك لكي لا يكون الإنسان في ذلك على الأقل موضع إتهام أو شبهة أو مثلاً سيئاً بالنسبة للآخرين وللمؤمنين وغير المؤمنين.

والويل ثم الويل للدين أو الشريعة الذي ينفصل عن عرفانه في نهج تحقق أوليائه وتطهرهم، لأنه يصبح حرفاً ميتاً بلا روح، وآية جامدة بلا حياة، وطقساً بلا معنى، وصلاة بلا قبلة، ولا تتضوع الشريعة ولا يفوح عبق الدين بعرار أزهاره المتكاملة في أمسيات دروب العناية إلا إذا انطلق من صميمه العرفان ليحقق، منذ هذه الأرض ومنذ إنطلاق دفء العيش فيها، الكشف الجوهري والشهود العياني الكياني الأخير، حيث تتلاقى الألف بيائها ويعود القصد إلى القاصد والنظرة إلى الناظر إليه.

فسبحان من جعل الرسل والأنبياء موضع سره ومقام استتار أمانته وأداة نشر هدايته، وأئمة تنظيم شؤون جماعته، والقيمين بالقسط فيما بينهم، وعلى تتميم السنَّة الملائمة الفاضلة، وتنفيذ مضامين الشريعة وما تعلو به من صدق وأخوة ومشاركة وطهر ورحمة واستقامة وأمانة، وجعل المتحققين الحكماء سراجاً منيراً في سماء ظلمة الفكر وجهل كثافة الجسد ومتاهة حجب الحواس، نشهد من خلال شفافية كثافتهم وغبار وجوههم وبهاء تصرفهم ونورانية كشفهم، الحقيقة الأزلية التي تقطن في عين أعماق أفئدتنا من حيث تنزل نفحة الحياة، فنراهم ببصيرتنا العقلية وببصائرنا الشحمية، من الداخل ومن الخارج في آن واحد، وعلى التمام كمن ينظر إلى عمود نور ونار متوهج، أو كمن يرى ذاته الجوهرية، بعد فناء ذاته الظاهرة الفردية، في مرآة كينونة ذاته وفي نعيم وجدانه... ﴿**فأين ما تولوا فثم وجه الله**﴾.

وسلام على صفوة المرسلين، وكل رسالة تمّمت ما جاءت به التي

سبقتها، الذي جعل هذا النهر العامر بالإشراق والحكمة والعرفان يقوم في حمى إسلامه، وكأنهم كواكب منيرة تسبح في أفلاك سماء مقادير الروح.

وقد يجيبنا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، إنما العجب والدهش إن لا يلبي أبناؤنا نداء هذه الألوف المؤلفة من كبار الحكماء والعارفين والزهاد والأولياء والمتحققين الذين زخرت بهم الأجيال السالفة، فيرفعوا من جديد سرج المعرفة الحقيقية ومنائر الفضيلة واليقين في عالم غزته المادة وكادت تهلكه وتفنيه من الداخل، فبل أن تتقوض أركانه الكثيفة فتنهار بعد غيبة هيكلها اللطيف عنها، وإنما حقيقة الوجود أن لا وجود لغير الموجود حقاً.

قدس الله سر جلال الدين الرومي في مناجاته للمطلق، نرددها.

مؤمنين موحدين، وإنما التحقق إشراف دائم على الرضى والتسليم:

«نحن ووجودنا عدم، أنت هو المطلق المتجلي في صفة الفناء

هذا الذي يحركنا هو عطاؤك: وجودنا هو من خلقك.

أنت الذي أظهرت جمال وجودك في العدم

بعد أن سببت بأن يقع (هذا العدم) في عشق ذاتك[1].

---

(١) جاء على لسان الإمام الخميني (رض): ومن الأمور التي يلزم التنبه لها ولا بد للإخوان المؤمنين وخصوصاً أهل العلم، كثر الله أمثالهم، بأن يتوجهوا إليها أنهم إذا شاهدوا وسمعوا كلاماً من بعض علماء النفس وأهل المعرفة فلا يرمونهم بالفساد والبطلان بمجرد أن الكلام المذكور غير مأنوس لآذانهم، وإنه مبني على اصطلاح خاص، ولا يهينوا أهله أو يحقروهم، ولا يتوهموا أن كل من تفوه بمراتب النفس ومقامات الأولياء والعرفاء وتجليات الحق والعشق والمحبة وأمثال ذلك الرائجة في مصطلح أهل المعرفة فهو صوفي أو مروج دعاوى الصوفية أو أنه نساج الكلام من دون برهان عقلي أو حجة شرعية.

ولعمر الحبيب أن كلماتهم نوعياً تشرح لما بينه القرآن والحديث. . .

(سر الصلاة أو صلاة العارفين ص ٨١).

لا تجردنا من نعيم رحمتك، لا تسلبنا فاكهتك وخمرك وكأس خمرك. ولكن إن أخذتها فمن الذي يسألك؟ هل الصورة تعترض على المصور؟. لا تنظر إلينا بل أنظر إلى عطفك المحب وإلى كرمك.

لم تكن، ولم يكن مطلبنا منا، ولكن نعمتك سمعت صلاتنا الصامتة فنادتنا إلى الوجود».

وبهذا يتم معراجنا في تخيل شهود العارفين ويتوضح وصف الآية.

إنهم أهل التحقيق، ورجال الأعراف، شهداء الدين، سادة الأمم وكيف لا يكون ذلك والله قبلة الدنيا والنية قبلة القلب (سهل التستري)[١].

وإن كان من حق البعض أن يستغرب بعض مصطلحات العرفان التوحيدي ولكن ليس من حقه أن يكفر القائلين به.

التقيــة

إن التقية عند الموحدين لا تعني الخوف من الإضطهاد كما يحب أن يصورها البعض من أبناء الطائفة أو خارجها، لأن التقية تدخل في أصل عقيدة العرفان التوحيدي، سيما وأن في الدين مستويات فكرية تصلح بعضها للعامة وبعضها للخاصة وبعضها لخاصة الخاصة، وأعلى درجة في المستوى الفكري للطبقة الأولى هي الدرجة الدنيا للطبقة الثانية، وأعلى درجة في الطبقة الثانية هي أدنى درجة للطبقة الثالثة.

وقد، قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي ومن لا تقية له لا دين له» وقال أيضاً: «التقية دين الله والتحصين سيفه ولولاهما ما عبد الله».

---

(١) المرجع السابق مقدمة المرحوم كمال جنبلاط ص ٥٨ ـ ٦١.

وقال أيضاً: «ما عبد الله بأحسن من التقية»[1].

وجاء قوله عليه السلام: «اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع وقووه بالتقية»[2].

وقوله: «اتقوا الله على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمن لاتقية له، إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير لو أن الطير تعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلا أكلته...»

وقوله: «والله ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء قلت، وما الخبء؟ قال التقية. (أصول الكافي: ج ٢ ص ٢١٨).

كما جاء عن لسان الباقر عليه السلام قوله: خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية إذا كانت الإمرة صبيانية[3] (أصول الكافي ص ٢٢٠).

وقد فسر الإمام الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿**ويدرأون بالحسنة السيئة**﴾ الحسنة التقية والإذاعة السيئة (بح: ج ٧٥ ص ٣٩٨).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو ناديت في عسكري هذا بالحق[4] الذي أنزله الله على نبيه وأظهرته ودعوت إليه وشرحته وفسرته على ما سمعت من نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ما بقي فيه إلا أقله وأذله، ولاستوحشوا منه، ولتفرقوا عني... (بح: ج٧٥ ص ٤١٣).

وقال علي زين العابدين (ع) شعراً.

---

(١) كتاب «الحكمة الجعفرية» للإمام الصادق جعفر بن محمد، جمعه وحققه وقدمه عارف تامر بيروت ص ٥٧.
(٢) أمالي المفيد ص ٥٩.
(٣) لأن الإمرة الصبيانية تجهل أصول الدين والعرفان التوحيدي وتنكره.
(٤) حقيقة التوحيد.

إنـي لأكتـم مـن علمـي جـواهـره　　كيـلا يـرى الحـق ذو جهـل فيفتتنـا

ونستدل من الأقوال الآنفة الذكر أن التقية، لا تعني خوفاً بل تعني الصفة الملازمة للعرفان الذي لا يجوز كشفه من قبل معتنقيه للاغيار الجهلة.

ونرى البعض من العارفين قد أخذ على الحلاج أنه أباح بالسر العرفاني الذي توصل إليه فكان سبباً لما حصل له ممن جهلوا الحقيقة الأخيرة.

وجاء في مناجاته لما صلب:

«اللهم إنك المتجلي عن كل جهة، المتخلي من كل جهة، بحق قيامك بحقي، وبحق قيامي بحقك، وبحق قدمك على حدثي، وحق حدثي تحت ملابس قدمك أن ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليَّ: حيث غيبت أغياري عما كشفت لي من مطلع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي النظر في مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد».

وهكذا فإن صيانة الحقائق في مسلك التوحيد هي أصل واس رئيسي لا نهج طارىء، وهي تقليد متوارث لما كانت تفرضه مسالك العرفان على ذويها وتابعيها في جميع العصور والأمصار، يوحي ويوصي به الإعتقاد بعدم استطاعة كثير من الناس استيعاب هذه الحقائق الأخيرة للوجود وعدم تطلبهم لمثل هذا الكشف وانصرافهم وتلهيهم عنه، فهم يكتفون بما نقل إليهم من سنن وشرائع ويحتجبون عن حقيقة أنفسهم بما يجذبهم في العالم الظاهر وبما يعبدون، لذلك كانت هذه الصيانة في قصدها الأول والأصيل وقاية للعامة من الناس الذين لا يقوون على هذا المرتقى الجليل في معراج التوحيد فتكون أذى لهم وإفساداً للظاهر الذي به يؤمنون، وهكذا يندفعون، لما اختلط في

نفوسهم وأشكل عليهم من حقيقة التوحيد والعرفان، إلى إيذاء رجاله ومريديه وإلى سوء فهم هذه الحقيقة[1].

فالتقية إذن حسب مسالك العرفان، وقاية للحقيقة، وللمستضيئين بهديها، ولمن لا يستطيعون إدراكها. وقد وصى بها كثير من الحكماء في العصور الماضية كهرمس وفيثاغورس وأفلاطون وبعض حكماء الهند وفارس كما وصى بها كبراء الأئمة المعصومين والعارفين في الإسلام.

ومن هنا نجد دعاة السوء، والذين يتربصون بالإسلام والمسلمين شراً. قد استغلوا ميزة التقية ليطلقوا لأنفسهم العنان في الإتهامات التي تنم عن نفسيتهم الترابية وتربيتهم المنحطة عاملين في كل عصر ومصر على نبش التاريخ وتشويه الوقائع علّهم يحققون في السلم ما أخفقوا في تحقيقه زمن الحرب.

موقف الموحدين ـ من تغيير المذهب أو الدين

الموحدون لا يقبلون أحداً في مذهبهم، ولا يعارضون من يخرج منه، وقد إتهمهم البعض نتيجة لذلك ـ بالتقوقع ـ وهذا مخالف لجوهر الحقيقة فالموحدون يعتبرون جميع الأديان والمذاهب مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة، وهم يحرمون الإنتقال من دين إلى دين أو من مذهب إلى مذهب لأن في ذلك مصلحة دنيوية[2] وليست دينية، ولأن جوهر التوحيد موجود في كل المذاهب والأديان، وما التحول من دين إلى آخر إلا نتيجة للجهل لأن المفاضلة بين أجزاء الحقيقة كالمفاضلة ما بين نورين أو شعاعين من شمس واحدة، فالتوحيد بالنسبة لجميع الشرائع السماوية بمثابة خيط السبحة الذي يخترق حباتها المتفاوتة شكلاً في اللون والحجم، فلا يمكن أن تدعي أية منها بأن

(١) أضواء على مسلك التوحيد ص ٩٦ ـ ٩٧

(٢) كالإرث والزواج والتوظيف... إلخ.

التوحيد في داخلها فقط، فكل حبة إذا تعمقت في مضمونها تجد التوحيد سارياً بها. ويشبه حكماء المذهب التوحيد بالمياه الجوفية فأي إنسان تعمق بفعله خرج إليه الماء. وهكذا فهم يقولون ما معناه:

أيها الإنسان إبق على ما أنت عليه ولكن تعمق أكثر. أي على الإنسان أن يبقى على مذهبه أو دينه ولكن عليه أن يتعمق في حقيقة تعاليمه والعمل بأوامره ونواهيه، وذلك يقوده إلى الإلتقاء مع بقية المذاهب والأديان التي تباين مظهرها واتحد جوهرها، فيجد نفسه مع الآخرين واحداً وموحداً، بعد أن أزال عن نفسه الأنانية والانية، دون حاجة إلى الإنتقال والإنتساب مجدداً إلى هذا الدين أو ذاك[١].

وهذا يدل على إنسانية مذهب التوحيد المستمد من إنسانية الإسلام وشموليته ـ وعلى إحترامه وإنفتاحه مسلكاً وروحاً على الجميع بعيداً عن التقوقع الذي يريد البعض أن يلصقه زوراً وبهتاناً.

وقد يظن البعض أن بإمكانه التفلت من الطقوس المفروضة عليه في دينه ويتبع طقوس دين آخر يراها سهلة عليه، فهذا الظن فيه أثم كبير، لأن الله سبحانه وتعالى عندما أمرنا في كتابه العزيز بالصلاة والصوم والحج والزكاة وغير ذلك، فعلينا أن نقوم بما أمرنا بكل رغبة وإخلاص لأن الله سبحانه ورسوله أعلم بمصلحتنا من أنفسنا، وكذلك الأمر بالنسبة للمسيحيين وغيرهم عليهم القيام بما فرض عليهم من الطقوس، فتوحيد الخالق بعدد أنفس الخلائق، ولكل طريقته المرسومة له، وعليه التمسك بها دون التعصب لها.

وعلينا أن نتمسك بقوله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾[٢].

---

(١) لا يتم معرفة ذلك إلا بالكشف العرفاني الذي هو صعب مستصعب لأنه يتطلب إفراغ القلب من التعصب والحقد والحسد وجميع الشهوات.

(٢) رحم الله من قال:

=

= تفكرت في الأديان جدا محققا — فالفيتها أصلا له شعب جما
فلا تطلبن للمرء دينا فإنه — يصد عن الوصل الوثيق وإنما
يُطالبُه أصلٌ يعبِّر عنده — جميع المعالي والمعاني فيفهما

يا بني الأديان كلها لله عزوجل، شغل بكل دين طائفة، لا اختيار فيهم بل إختياراً عليهم، فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنه إختار ذلك لنفسه. وهذا مذهب القدرية و «القدرية مجوس هذه الأمة» واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان، هي ألقاب مختلفة وأسامٍ متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف».

(«أخبار الحسين بن منصور الحلاج» ص ٧٠).

الفصل التاسع

الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي

مولده ونسبه:

ولد الأمير السيد جمال الدين والدنيا عبد الله البحتري التنوخي في بلدة عبيه من جهات الغرب من لبنان عام ٨٢٠ هـ الموافق ١٤١٧ م من أبويين تنوخيين وكان حفيد أمير المغرب لأبيه وأمه الأمير الجليل سعد الدين خضر، أبوه الأمير علم الدين سليمان وأمه الست ريما.

أما أسرته آل تنوخ فهي عريقة حسباً ونسباً وديناً ودنيا وهم رواد مذهب التوحيد الإسلامي وقد وقفوا بكل قوة وصلابة بوجه الفرنجة والتتار.

ويعود نسب هذه الأسرة إلى النعمان بن المنذر وهو جدهم العاشر، وأول جد لهم في لبنان هو الأمير بحتر، وقد بلغوا سنام العظمة والمجد في عهد المماليك البحريين والبرجيين وحكموا بيروت بعد جلاء الفرنجة عنها قهراً.

وفي العقد الثاني من القرن الخامس الهجري استجابوا للدعوة الفاطمية الإسلامية وعملوا على نشرها في سوريا ولبنان، وتحملوا المشقات الكبيرة في سبيل ذلك ولكن النور المحمدي الذي أضاء صدورهم وعقولهم زادهم إصراراً على النضال متمسكين بصدق اللسان وحفظ الإخوان والعمل على عدم الشرك بالله، والإبتعاد عن الزور والبهتان.

والتاريخ المنصف يشهد صادقاً بأن أولئك العمالقة التنوخيين وإخوانهم كانوا القلاع الصامدة بوجه الفرنجة الذين تواكبوا خداعاً مجتاحين باسم الدين ليستعمروا ويستثمروا ويقطنوا ويزيحوا إلى الأبد لغة الضاد وشعبها وشريعتها.

وطال قروناً عهد التنوخيين في لبنان فشاطرهم السلطة مؤخراً أنسباؤهم المعنيون أمراء الشوف، وقد أضفى الكاتب الكبير محمد كرد علي نوراً على الحقبة التي احتضنت السنوات المشرقة من حياة الأمير السيد في كتابه خطط الشام ج ٢ ص ١٩٠ نقلاً عن المقريزي قال: «حدث في تلك الأثناء خراب مصر والشام لكثرة الشرور والفتن وما جرى من مظالم ونهب وتسلط وعدوان. يسوم الناس ذلة في طرابلس والشام».

ولا نغفل عما زرع التوغل الصليبي، في صدور أبناء البلاد، بعضهم ببعض، من أحقاد ناهشة وثارات وأدغال، حطت الإنسان عن إنسانيته، إلى الدرك الوخيم لكن العناية كانت قد قيضت في سمح عطائها، لهذا البلد الكابي، نبراساً هادياً مهدياً أضاء سبيل الحق والخير والصدق، ومسح الصدأ المتآكل عن الصدور، وطاف داعياً مرشداً وقاضياً نصوحاً عدلاً من بلد لآخر، صيف شتاء، لا يمل ولا يهن، يدعو إلى خير العمل، ويوقد مشاعل الصلاح في النفوس، ويفتي بنزاهة وتجرد وحزم لا يفرق بين قريب وغريب وأخ مهتد، وضال من مسيحي ليهودي لمسلم، من ضواحي حلب للبنان فنابلس.

كانت الحكمة التي تنير ذهنه هي تلك: «إجعل العلم مديرك، والورع مشيرك والحكم وزيرك». وكان مؤمناً بالإنسان إنه أشرف المخلوقات إذا عقل وأحطها أذا تبذّل واستكبر وطمع في دنياه وأسف في شهواته[١] في ذلك العصر الكالح، حيث استشرت المطامع والمفاسد، وعدمت ثقة الإنسان

(١) كتاب التوحيد الدرزي للدكتور سامي أبو شقرا.

بأخية الإنسان، وانطفأ مصباح الرجاء برائد حكيم عليم، ذي صولة في الحق ومنطق يجلو الغمامة عن النفوس، ويصون ميزان العدل، حيث السلطة الحاكمة، في شغل عن الناس، همها جباية الضرائب الباهظة، وتعفير الأنوف الأبية متهافتة على الرشوة والسلب والإغتصاب، هي في واد وسواد الشعب في واد في ظهيرة هذا العصر ولد الأمير السيد في البيت العريق.

وما ان دب الطفل حتى قبض أبوه إلى رحمة ربه فنشأ الأمير جمال الدين يتيماً في حضن أمه الست ريمة التنوخية تربيه تربية صالحة وترضعه خوف الله.

فلم يلبث أن لاحت في وجهه أنوار التقى والنجابة وامتاز منذ طفولته بطابع التهذيب والإبتعاد عن ملاهي الحياة وبهرجها.

وجاء في كتاب الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك في كتابه «ولي من لبنان» قوله:

وفي حين أن البحتريين هم أهل للتعليم وقد اشتهر في بيتهم ذوو الأدب والمعرفة، فلم يذكر واحد من الذين ترجموا للأمير السيد ووصلت إلينا كتاباتهم أن اليتيم درس على أحد أعمامه أو أخواله، ولكن ابن سباط يقول عنه أنه طاف القرى في طلب العلم، وهو ما يزال طري العود، وراح يزور في حداثته «الأجواد في طلب الافادة» وقد تورع يافعاً ولم يصل إلى ورعه الشيوخ وهكذا ثبت جنانه وسبق الأقران، فأطرح شؤون الدنيا واشتغل بعبادة الرحمٰن، وجرد نفسه للكتاب المطهر (القرآن الكريم) واستظهره غيباً فطبعت في قلبه سوره وآياته وصار لا تغيب عنه لفظة واحدة منه...

وبلغ من كثرة حفظه أن رسخت الآيات في نفسه، وعلى لسانه حتى صار يتلو المكرم الشريف جميعه عكساً كما يتلوه طرداً أي أنه يبدأ من آخر الآية ويستمر في تلاوتها من تحت إلى فوق مثال ذلك «الضالين ولا عليهم المغضوب غير عليهم أنعمت الذين المستقيم الصراط أهدنا نستعين وإياك

نعبد إياك الدين يوم مالك الرحيم الرحمٰن العالمين رب لله الحمد. . . » وإنها سورة الفاتحة، وقد قل من لا يحسن تلاوتها، فإذا حاول أحد أن يبدأ عكساً، من آخرها إحتاج إلى أعمال الروية، فما بالك مثلاً بتلاوة سورة البقرة؟ ناهيك بالكتاب العزيز كله، وقد ذاع هذا عن الأمير جمال الدين وامتحنوه في ذلك فقرأ سورة كبيرة اختاروها له ورجعوا مشدوهين يحدثون بما سمعوا حتى شاع الخبر في جميع الأنحاء.

ودرس من كتب اللغة «الصحاح» للجوهري و «القاموس» للفيروزآبادي وكتب النحو والمنطق والفلسفة والفقه على المذاهب، ورسائل إخوان الصفاء وسواها من الكتب المفيدة.

وكذلك قرأ سير الأنبياء وأخبار الملوك، ومطولات التواريخ «ودواوين الشعراء وصارت له مشاركة في الطب وعلم الفلك وعني بمؤلفات الحديث والفقه ولا سيما بكتب سفيان الثوري، وابن عيينة وعبد الله بن المبارك، وحاتم الأصم، وابن الشهال ومالك بن دينار وأمثالهم وقد بلغ في العلوم الدرجة السامية.

واتجه الأمير السيد (قد) إلى تعليم بني قومه الإسلام الحقيقي والتوحيد الإسلامي بهمة لا تعرف الملل والكلل والهمه الله الصبر والجلد وسبح في بحر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتكبر على صغير ولا على كبير حتى غص مجلسه بالوافدين، وقد طارت شهرته في البلاد بأنه موضح الإشكال ومفسر غوامض الأقوال والبالغ في علومه أقصى النهايات حتى صارت له أسرار وكرامات.

وكأن الأمير (قد) يوصي في قراءة آيات كتاب الله العزيز أن لا يكون وصول الألفاظ إلى سمع القارىء بأسرع من فهم معانيها، والعمل بما فيها إرضاء لله ورسوله.

وتزوج الأمير السيد (قد) بالست عائشة المشهورة بست العيش وهي ابنة

الأمير سيف الدين أبي بكر بن شهاب الدين أحمد وقال الشيخ أبو علي مرعي:

«وكان من أهل بيته تقية تعنى بحفظ كتاب الله، وهي فهيمه أصيله الرأي، نسيبة الأعراف، طاهرة الأخلاق، برز من قومها أمراء ذوو صولة وتمكين ومحابس ومرابط وجند وعبيد، وإقطاعات كثيرة وعز منيع، فكثر طلابها، وتعاقب خطابها، ومنهم أمير الأمراء وصاحب سطوة الدنيا، وهي تعرض عنهم آملة بقوله تعالى: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**﴾.

فجهز الأمير النفيس لطلبها مع قلة الثروة والمال، وأجابت دعوته وقبلت الاشكال، وهي ترجو دينه لا دنياه، وهذا خير وأبقى.

ورزق من هذا الزواج المبارك أربعة بنين، ثلاثة منهم ماتوا صغاراً وهم: عبد الخالق وفاطمة ومحمد، وأما الرابع وقد اسماه بسيف الدين عبد الخالق، باسم بكره الذي مات صغيراً فعاش ثماني عشرة سنة وقتل في ليلة عرسه برمحة فرس[1].

قبل إبتلاء الأمير بفقد وحيده كان قد رحل إلى دمشق وله من العمر تسعة وثلاثون عاماً مصحوباً بعائلته داموا فيها اثني عشر حولاً. وذلك طلباً للعلم. والتبحر في الشرع الإسلامي الحنيف. بعد أن حفظ القرآن غيباً واستقر في ذهنه عكساً وطرداً بالإضافة إلى شرح البيضاوي، وأقام هناك في الضواحي حلقات عامرة بالشيوخ والمريدين ويقرأ عليه القرآن الكريم ويشرح لهم معانيه ويكشف لهم غوامضه بالتفسير والتأويل ويقف طويلاً عند الآيات التي تحث على الصبر وتدعوا إلى مكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس وانتزاع الأنانية والشهوات البهيمية والتغلب على أهواء النفس من الحقد

(١) كتاب ولي من لبنان ص ٧٥.

والحسد والكبرياء والطمع وحب الدنيا والجاه ويحث على الصلاة التي هي عمود الدين، ويأمر بحضور القلب عند الوقوف بين يدي الله عند الصلاة والخشوع بحضرة الباري لتكون صلاته مقبولة لدى رب العالمين وسيد المرسلين.

وعندما سأله ابن الكسيح عما إذا كان في بلاده إسلام على التمام؟. وكيف تكون الصلاة عندهم؟. قال الأمير السيد (قد):

نقوم بالأمر، ونمشي بالسكينة، وندخل بالقصد ونكبر بالتعظيم ونقرأ بالتوسل ونركع بالخشوع ونسجد بالخضوع، ونسلم بالنية، ونتمثل الجنة عن يميننا والنار عن شمالنا ونقول في أنفسنا: إن الله حاضر معنا، وإننا لن نصلي صلاة بعدها، فالتفت ابن الكسيح إلى أصحابه وقال: قوموا بنا نعد صلاتنا، فليس فينا من يصلي.

وفي زمن ضاعت فيه القيم وكثرت الإعتداءات على هذا الشرق وكان وكلاء السلطان يعيثون الأرض فساداً، واحتكروا في عهدهم أقوات العباد وخيم الظلم بعجائبه البغيضة على نفوس الحكام والمحكومين وسادت الفوضى في تفسير كتاب الله، الذي كان خاضعاً لأهواء السلاطين وثوابهم، خدمة لأغراضهم اللإنسانية التي تستهدف القضاء على هذه الطائفة أو تلك فاستصدار الفتاوى المغرضة كانت سمة عهد المماليك الطغاة، والسلاطين العثمانيين بعدهم، وانتشرت بعض العادات التي تخالف الإسلام في جوهره ومظهره.

فبادر الأمير السيد (قد) إلى توضيح مسلك التوحيدي الإسلامي، وحث على الطاعة لكتاب الله عزوجل والعمل على سنة رسوله الأمي الكريم، والإقتداء بالأئمة الأطهار، وكان ينادي بأن الإسلام إيمان وعمل بالأركان، وكان يحث على الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلاً...

وأمر الأمير السيد... ببناء المساجد في القرى وبتجديد الجوامع

وإنشاء الأوقاف وبعث الفقهاء لإقامة خطبة الجمعة في كل قرية ولتعليم الأحداث، وكان يعطي من ماله الخاص أجر تعليم الأيتام في مختلف الأنحاء.

مؤلفاتـــه:

وقد أصدر العديد من المؤلفات التي تبحث في الفقه واللغة وشرح غوامض الكلم، كما ألف كتاب سياسة الأخيار وكذلك أعطى وصاياه للشيوخ والمريدين حول مختلف القضايا الإجتماعية والإنسانية، وبحث في الزواج وفي تربية الأولاد، وفي استعمال جوارح البدن فيما يليق بالإنسان ويرضي رب العالمين، وكان كل ما يقوله يطبقه على نفسه أولاً، ويطلب الإقتداء به فلم يكلف تابعيه بما لا طاقة لهم فيه.

وكان يحث على التركيز الروحي والتأمل أثناء الصلاة وبعدها، وكان يحث على الخشوع بين يديه تعالى، وعلى دوام المراقبة واليقظة والثبات، فالصلاة هي الصلة بالخالق والتوجه إليه بالفكر وإخضاع الجوارح لعظمته عزوجل، ويردد أن على المرء ألاَّ ينظر إلى صغر الذنب بل ينظر إلى عظمة من عصى.

ومر ذات يوم مع جماعة من التلاميذ بالقرب من حصن لبناء الخراب الشهير وهو من عجائب العمارة في احكام الصناعة وضبط البناء والنحت فقالوا له، لو حسن عند مولانا الأمير أن ينظر هذا البناء العجيب العريق.

أجاب: ليس لنا في ذلك حاجة.

قالوا له: المكان قريب وهو يشرح الصدر.

فتوجه إليه ووجده من عجائب الأبنية وكانت حجارته بحجم الصخور العظيمة وقد تلاحمت حتى لا تكاد تدخل الأبرة بين حجر وآخر ولكن أشراساً من الشجرة قريبة منها إمتدت في الأرض وخرجت من بين الأحجار وشقت لحامها وفصلت بينها حتى صارت القدم تغوص فيها فقال الأمير السيد أن

أشراس هذه الشجرة علمتني شيئاً جديداً. يجب أن لا يستصغرن أحد أي ذنب تافه، فقد يكبر هذا الذنب ويعظم ويشبه الأشراس في شقها لحام الأحجار الضخمة التي نراها أمامنا[1].

ويقال بأن مؤلفات السيد الأمير قد فاقت الثلاثين مجلداً وقد اختفى أكثرها بسبب الحروب وبقي بعضها مشوهاً بيد ذوي النيات السيئة، وقد قصد بعضهم التحريف والتزوير المادي والمعنوي لما تبقى من المؤلفات القليلة جداً والتي لا تتجاوز أصابع اليد وكان القصد من هذا العمل الإجرامي إبعاد الأمير وتابعيه عن إسلامهم وعروبتهم ولا تخفى على اللبيب طاعة هؤلاء لأسيادهم المستعمرين والغزاة والفاتحين.

وقد جاء في كتاب التوحيد الدرزي في مضمونه الإنساني للدكتور سامي أبو شقرا ما يلي:

لقد تمكن الأمير خلال طوافه في قرى الشام ولبنان أن يسبر غور نفوس الأهلين، حين تمت له معايشتهم، ذلك الزمن المديد، وأن يتحسس الآمهم، ويقف على مواطن الوهن والشلل، في نفوسهم وأجسادهم فكان الطبيب الماهر الصدوق للجسم والنفس معاً. لنسمع من نفحاته غامزاً على من استعبدتهم الشهوات وطلب الاثراء قال: «لا راحة في الآخرة لمن تعجل الراحة في الدنيا، ولاحظ للنفوس في النعيم لمن آثر حظ الاجسام في دار الفناء فمن أتعب نفسه في الواجبات[2]، أُعطى الراحة فيما هو آت».

وقال سماحته «أعلموا أن الله خلق الملائكة عقلاً بلا شهوة، وخلق الحيوان شهوة بلا عقل، وخلق الإنسان من شهوة وعقل، فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة. ومن غلبت شهوته عقله كان شر من الحيوان».

---

(١) كتاب ولي من لبنان ص ٧٥.

(٢) الواجبات الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج.

ولنسمع الأمير مشيراً إلى طريق المعالي مُدلاً بالجد والمثابرة لمنال الرغبات بإشراف العقل وحكمة التصرف.

«لا تنال المراتب العالية إلا بالتنحي عن كل غوي أثيم، فمن تنصل توصل ومن توصل تحصل، ففي الجد والتشمير والعقل والتدبير تفاوت المطالب وبلوغ المراتب واستدراك المآرب» وقال محذراً ناصحاً:

«فإن رمتم الصولة والإستظهار وعلو الكلمة والإقتدار، في دار الدنيا ودار القرار فهذا أمر لا يناله أحد من الأخيار. فالأولى بكم أن تصرفوا العناية إلى ما أنتم به مطالبون، وعنه مسؤولون، وعلى تركه معاقبون».

وأضاف:

«انزعوا من أعناقكم قلائد الفخر والتكبر، وألزموها سبيل الحلم والتواضع وسلوك نهج التدبير... واعلموا أن المكافأة على القبائح والمناظرة في الشرور والمكائد هي مولود الجهل، والجهل مولود الكبر، والكبر بدعة إبليس، والغضو عن المكائد والكف عن الأذى وإحتمال المكاره هي مولود الحلم، والحلم مولود العلم، والعلم نتيجة العقل، والعقل خزانة العبادة والعبادة غرض الرب».

بهذا المنطق الساخر راز الأمير الجليل العقل والجهل وما يتولد عنهما من خير العمل وباطله ولنمعن في سمو مقاصده».

«الكريم بماله، والحكيم بحكمته وأفضاله، والعاقل بصبره واحتماله، فمن اعتز بما له قل ومن اعتز بقوته ذل ومن اعتز بربه جل».

وقول يقيِّم الحق:

«... في مفارقة الحق لأهله ما يواسي ذهاب الأموال وهلاك الأجسام ونزع الأرواح وموت الأولاد... وزيادة...» واتبعها بقوله:

هذه رسالتي إليكم حجة لله عليكم لئلا تقولوا ما جاءنا منبه ولا واعظ

فلكم على المرشد بذل النصيحة. . . » وهذا التنبيه الحار:

«إياكم أن تكونوا شعلة النار، وسبباً لبلوغ غرض الأشرار، وإن مازجتموهم بالطبع في العقول والإفهام، كنتم شراً منهم في السخط والآثام».

وكأني بالأمير هنا يحاول لمس جراح المعذبين، ومسحها ببلسم حكمته فيقول: ليس الزمان باقياً على حال، وأهله على شفا جرف الإرتحال، فالسعيد من ركب جواد المروءة واعتبر، وكشف عن ساق العزيمة وحذر وحذّر. والشقي من أركن إلى الإهمال، وقابل مراسيم الحق بغير فاضل الأعمال».

وكان الأمير (قد) لا يخشى في الحق لومة لائم وروي: أن أحد كبار تلاميذه وهو من أعظم المشايخ شأناً ووقاراً في قومه، ومن أكثرهم سطوة ونفوذاً من ناحيته ـ كان له كرم في جوار شخص رديء السيرة فاسد السريرة، وقد أرسل الشيخ جماعة تحرث الكرم وتقلم «دواليه» فحرثوا الأرض ووضعوا الأغصان المقلمة في حقل جاره، فعرف الأخير بالأمر فغضب وألقى بالأغصان المقلمة مبعثرة في كرم الشيخ. فعظم الأمر على الشيخ بسبب تجاسر هذا الرديء عليه، وهو ذو المكانة والجاه في الدنيا والدين فشكاه للحكام فسجنوه وضربوه وغرموه بخمسمئة درهم وصرفوه وراح المضروب يخبر ما جرى معه، وأطلق لسانه بالقذف والسب للشيخ، فعرف هذا وأقسم أنه لا يساكنه طيلة حياته، فاضطر الرجل المضروب لأن يرحل مع عائلته إلى قرية أخرى خوفاً من جاره وترك داره وأملاكه. إلا أنه إزداد تذمراً وتشكياً وصار يبث أمره لكل من صادفه فقيل له هلا شكوته إلى شيخه الأمير؟.

فأجاب: من أين لي أن يسمع شكواي على شيخ وزعيم إقطاعي مقرّب منه ومحبوب إليه فقيل له، أيها الجاهل ليس عند الأمير كبير أمام الحق والقانون.

وجاء المضروب إلى عبيه يشكو ظلامته فاستغرب الأمير ما حصل

واستدعى الشيخ واستوضحه قائلاً هذا الرجل يقول إنك فعلت به كيت وكيت فهل قال صدقاً؟.

أجاب الشيخ المشكو: نعم، ولكنه ساقط رديء السيرة، وسفيه خائن.. فسعيت به إلى من أدبه، وزاد في كذبه وعتوه، واضطررت إلى طرده وأقسمت أني لا أساكنه في البلد الذي يجمعنا.

قال الأمير السيد لنبدأ الحكاية من أولها، هل وضعت الدوالي في أرضه أم لا؟.

قال: نعم...

سأله: وإذا نقلها من أرضه التي أعتديتم على حرمتها، فما هو المنكر في عمله؟.

قال الشيخ المشكو: إنه قد تعدى طوره، ورمى الدوالي وبعثرها، وكان يجب أن لا يمسها، بل يطلب منا أن ننقلها.

أجاب قدس الله سره: قلت عنه أنه رديء السيرة خائن ساقط. وهو له من يجازيه ومجازيه لا يخاف ولا يجور.

أما إنك سعيت به إلى من لا يحسن طرق العدالة حتى ظلمه وأخذ من ماله ما تحتاج إليه عائلته، ثم طردته من موطنه قهراً فهذا فعل الجبابرة... لو كان لجارك ظفر يحك جلده لما تجرأت على عملك معه. فأين شروط الديانة وأين حفظ الأمانة؟. ألا فاعلم - إن كنت باقياً على القول بقولنا، والعمل بكلامنا - إن قد حكمنا عليك برد الدراهم التي أخذت من جارك بسببك، وبأن يرجع إلى بلده فيه على رغم منك، وأما يمينك بأن لا تساكنه فقد افتريت بها على نفسك، فإن شئت حنثت فيها وساكنته، وإلا توجهت إلى حيث أحببت هذا حكمنا عليك، فأما أن تفارقنا وتختار مرافقة سوانا وأما أنك تمتثل وتنفذ.

سطع منار الحق للشيخ الزعيم فأعطى جاره خمسمئة درهم من ماله واستبرأ الذمة منه ثم بر في يمينه بأن رحل إلى قرية مجاورة وعمر فيها وسكنها حتى مماته.

فذاع صيت الأمير في أنحاء البلاد واطمأنت النفوس لعدله فخافه الظالم وركن إليه المظلوم وخيم السلام على أتباعه ومواطنيه بفضل تطبيق التوحيد الإسلامي الذي يصلح لكل زمان ومكان. . .

وروي أيضاً: إن رجلاً كان من ذوي اليسار والثروة يقبل على الأمير كل عام مصحوباً بهدية لائقة، فيقبلها الأمير تطييباً لخاطره.

ذات يوم طغت على الموسر شهوته فاقترن بامرأة من غير رضاها، فتسرب الخبر للأمير، وطلب الرجل على الفور فجاء وبيده هدية، ففاجأه الأمير: أيها الباغي، الظالم نفسه من كان مثلك لا أقبله ولا أقبل هديته لأنك مخالف، تأخذ النساء كرهاً بأعوان الظلم وبذل الأموال؟.

أتظن أني ما سمعت خبرك، فاخرج من عندي مطروداً، ومن عند جميع من يقول بقولي طريداً منفياً. . . وأمر برد هديته وطرده من بابه.

وغادر الرجل ذليلاً، وذهب إلى صديق له في عبيه مكسور الخاطر، والألم باد على وجهه، فسأله صديقه مستوضحاً الأمر فأفاده ما حصل له، وأردف قائلاً. . .

«وعزة الله وجلاله لم يدخل عليَّ في كل عمري فادحة أعظم منها، ولا أشد وكان الموت عندي أهون مما سمعت ورأيت، لقد قدمت على الظلمة، وسجنت وعوقبت، وخسرت الأموال وفقدت شابين من خيار الأحرار، ولم يكن كل ذلك أشد خطباً عليَّ مما حلّ بي هذا اليوم وانصرف بهمه وغمه.

وحصل كثير من المشاكل، كان للأمير فيها الباع الطويل في حلها بحزم وعدالة وفق كتاب الله وسنة رسوله، عاملاً بما علم، مخلصاً لخالقه في قول

الحق، ورفع منارة الإسلام بهمة لا تعرف الكلل والملل.

الأمير وفقد وحيده:

جاء في كتاب «ولي من لبنان» للأستاذ يوسف يزبك ما يلي:

إن الأمير السيد رزق ثلاثة بنين ماتوا صغاراً، ثم رزق ولداً رابعاً دعاه باسم عبد الخالق ولقبه بسيف الدين وهما الاسم واللقب اللذان أطلقهما على بكره المتوفي.

ولد شجرة النور، الأمير سيف الدين عبد الخالق الثاني في ١٨ من رمضان ٨٥٢ هـ (١٥ من تشرين الثاني سنة ١٤٤٨م) فأطلق مولده السرور للتلاميذ والمحبين والأصدقاء و. . . «وفدت على أبيه الوفود، وبذل في الأفراح المجهوَد، وتداعوا بالعهود واشرقت طوالع السعود. . . وكان الصغير أبيض اللون مشرباً حمرة كأنه قطعة من بلور، يميل إلى شقرة قليلة وفي عينيه شهلة لطيفة وكان معتدل الرأس والعنق حسن الفم قوي الكف، سبط الأصابع، سوى الزندين والمنكبين والقدمين، رطب اللحم قليله في الصلب والوركين صحيح العقل سهل الخلق، عذب الكلام، قادراً متواضعاً، متعبداً ورعاً. حليماً سخياً زكياً ذكياً عفيفاً نظيفاً شريف الحدس عزيز النفس[١]. . .

وما أن بلغ السابعة حتى ظهر ميله إلى العلم فأخذه والده يؤدبه ويعلمه الخط، وانتقل به إلى دمشق وسكناها إثنتي عشرة سنة، وراح الغلام يخالط العلماء ويجالس الفقهاء، وتجرد للقرآن الكريم، ثم تمكن من النحو واللغة والمنطق والحديث والتفسير، حتى ارتفع مناره وقيل فيه أنه نسيج دهره وفريد عصره، فرجع مع والده إلى مسقط رأسه، وصار في عبيه ملجأ القاصدين وكهف الواردين.

وفي سنة / ٨٧٤ / هـ زفت إليه ابنة عمته ولكن الله تعالى شاءت إرادته

---

(١) ابن سباط مخطوطة باريس ورق ١٩٩.

أن لا يكمل الفرح بزواجه، ففي يوم الزفاف ـ وقد جيء بالعروس إلى بيت الزوج ـ سمع الأمير سيف الدين عبد الخالق تصاهل الخيل في الاصطبل، ثم اشتد هياجها، فنزل إليها مسرعاً وما أن دخل بينها حتى أصابته رمحة في مقتل كانت القاضية على روحه الطاهرة.

ويا لها من ساعة مقيمة معقدة كأنها انقضاض الصاعقة، وقد انتشر هولها بسرعة البرق وعمت الخلق وتقاطرت الناس من كل حدب وصوب وكلهم مفجوع كليم، يواسون الوالد الثاكل وينوحون ويولولون ولشد ما كانت دهشتهم إذ وجدوا الأمير السيد قد تقبل مصابه بالصبر، وسلم لله في روع الأمر. ولم يكتف بذلك بل أنه لاطف الباكين ودعاهم إلى التعقل والكف عن الولولة، وذكرهم بأن الخلق رهائن الساعة وأن الساعة آتية كل نفس وقال في وعظهم:

«سبحان الله والحمد لله. لا حول ولا قوة إلا بالله، له البقاء الدائم. وهو العليم الحاكم، له الأمر النافذ، وهو الواهب الآخذ، نحمده على ما أولى، ونشكره على ما أبلى. لقد أعطى ومنع وتكرم وأشبع، منه الإمتنان وعليه التكلان وإليه الإيمان، هو العظيم الجليل وأنا العبد الذليل الواقف بباب الرحمة، أطلب من كرمه النعمة.

وكان يوم الدفن يوماً مشهوداً مشت البلاد كلها فيه وتقاطرت على أبيه تعزيه وحمل الجثمان إلى قبة الأمير صالح في مدافن الأمراء التنوخيين، ولما دفن وقف والده يتقبل التعازي وتقدم منه المعزون في نظام، ثم عاد إلى منزله وأمر ببسط السماط وإحضار الطعام وأخذ يعظ الناس بمعجزات الله وأخبار الأنبياء والأتقياء وقرأ عليهم آيات الحكمة، وجعل من موت وحيده أدباً للمتقين وعبرة، ولبس لربه حلل الطاعة راضياً برد الوداعة. وسلم تسليم المؤمنين واعتصم بالحق اليقين. وقال:

«أيها الناس يطوي العمر الجديدان ، ولا فوت من الموت، لكم عند الله من الخير ما تكنزون، ومن الشر ما تكسبون، ونحن وأنتم في قبضة

المالك، وهو المنجي برحمته من المهالك، فعليكم بقبول أوامره طاعة وصبراً، والإثابة إلى رحمته سراً وجهراً. فطوبى لمن قبل أوامر الله بالطاعة وجعل مدة الحياة ساعة وركب جواد القناعة، وقيد نفسه بقيد الوراعة وجعل من حق الموت الرضى بتسليم الوداعة.

أيجوز أن يعترض العبد على ربه في ما أبدع، أو يغضب من قبضه ما أودع، أو يعص قوله فيما أنبأ به وهو يسمع أو يظن أن حكم الله وقدره لهما مرد أو مدفع.

أيها الناظرون إليَّ، أتظنون أن صبري على فقد ولدي الصالح جهالة، أو ترك اعتراضي على القضاء فيه ضلالة؟ أم أني نسيت منه علمه وحزمه وحلمه وأفضاله، ورفقه وصدقه وصبره واحتماله؟... كلا... ولكن الطاعة مطية من اتقى، والتسليم منارة من ارتقى.

أيها الناس. إن الله خلقكم وأسبغ عليكم نعمه وعطاياه. وفرض الحق عليكم، وقبله منكم وارتضاه، ونهاكم عن الباطل وحذركم من سخطه فويل لمن عصاه. أنتم كسمكة خلقها بإرادته وأعطاها سبعة بحار تغوص فيها وتعوم وترزق ولا يحيط بها قرار. وخلقكم من لا شيء وغمركم بالرحمة ونقلكم من ضيق الدنيا إلى فسيح النعمة. أما ترضون بالرؤوف المليء شفقة ورأفة القادر القاهر المعطي المانع الحاكم بالحق والنصفة، أتظنون أنكم إذا أعترضتم عليه في حكمه تبلغون هواكم وإذا أهملتم طاعته تخلصون من بلاكم.

أيها الناس أنتم كطير مسجون في قفص الإرادة يتحرك في طلب هوائه فلا يجد مطاراً ولا قراراً ولا زيادة.

أيها الناس، لقد بلغ العصر آخره، وحكم فيه خالقه وقادره، وعما قليل يظهر الجزاء فيعرف العامل عمله بأوله وآخره ولا يضيع مثقال ذرة بين يدي ناهيه وآمره فيافوز المتقين.

وتعاقب التلاميذ الأتقياء على تأبين الأمير سيف الدين عبد الخالق،

وقالوا في المصاب به أشياء كثيرة مؤثرة جداً، وكان الشيخ شمس الدين محمد بن حسين الصايغ أكثر الشعراء رثاء له، ونكتفي بإيراد مطلع مرثاة طويلة جاء فيها.

قـف بـالـديـار وحييهـا ونـاديهـا — وانظر إلـى ربعهـا العـالـي ونـاديهـا
أمـا المعـالـي فقـد دكـت مبـانيهـا — من بعدما كان سيف الدين بانيها
يـا عبـد خـالقنـا قـد كنـت راعيهـا — فبعدك اليوم من أضحى يراعيها؟
بحـر العلـوم صغيـر السـن حـاويهـا — والكتب منهاجها قاري وحاويها

وهكذا فإن الأمير السيد (قد) تمسك بحبل الله وصبر على مصابه لأنه يعلم بأن سيد المرسلين وحبيب رب العالمين إنتقل إلى جوار ربه، وكل نفس ذائقة الموت والعاقبة لمن صبر واتقى.

من أقوال السيد الأمير (قد):

لا بد من مقدمة ـ قبل أن نكتب ما ورد على لسان الأمير السيد من أدب وحكمة ومواعظ وتوصيات ـ نشير بها إلى أن مؤلفات الأمير قد فاقت عن الثلاثين مؤلفاً فقدت بأكثريتها بعد وفاته، وبعد استيلاء الأعداء عليها أيام الدولة العثمانية التي دأب المجتهدون المغرضون على تزوير الحقائق، فحرقوا المؤلفات التي تظهر بوضوح إسلامية المذهب التوحيدي وزوروا ما تبقى منها، واستنسخوا قسماً منها بخط يترواح بين الجميل والقبيح وبلغة ركيكة لإظهار الأمير بمظهر الضعيف في اللغة والإجتهاد وهو الذي أسكن القرآن والأحاديث في قلبه وحفظ قواميس اللغة وألف في مجالها الكثير.

ومن مظاهر التزوير والتحريف ـ لما تبقى بعد الإتلاف المتعمد ـ حذف كل الآيات القرآنية التي رصع فيها أقواله ومواعظه، فلم تبق آية أو حديث في صدر موعظة من مواعظه أو في مستهل رأي من آرائه الفقهية. وأبرز المغرضون بعضاً من كتاباته المحرفة والتي لا تمت جلها إلى حقيقة إسلامية.

وما زال الأعداء ـ في خططهم ـ هم أنفسهم الذين ورثوا الأحقاد منذ

وفاة الأمير السيد، ينشرون بعض أقواله مشوهة ومبتورة وخالية من الآيات القرآنية الكريمة ومن الأحاديث الشريفة، ونجد فيها مقاطع أقحمت على النصوص، وهي مقاطع تتعارض مع المبادىء الإسلامية العامة بقصد التشويه والتنفير.

وقد استغل المغرضون سرية المذهب الملازمة للتوحيد ليعيثوا في الأرض فساداً، وليفرقوا الأمة الإسلامية ويجعلوا منها شعوباً وقبائل يقطع بعضهم رقاب بعض.

ولولا رحمة الله وتفضل أحد الأعيان وتقديم النسخة الحقيقية لأقوال الأمير لما تسنى لنا الإطلاع على ما نبديه في أدبه ومواعظه وإرشاداته.

ومما جاء على لسانه (قد) في:

١ ـ تحريم الخمر والمسكرات:

... وكما ورد في كتاب الله عزوجل... ﴿**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر**﴾...[١] والإنسان ما دام صحيح العقل، صافي الذهن، أدرك عواقب الأشياء المحمودة والمذمومة. والخمر يصدىء العقل ويغطي صورته المميزة المدركة حقائق الأشياء، ويكدره ولا يدعه يميز بين الحسن والقبيح والخير والشر فيصير الجميع عنده بمحل واحد لأجل ذهاب مخيلته النيرة المضيئة.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر. كما قال: اجتنبوا كل مسكر.

وهكذا الخمر وكل مسكر إذا غلب على العقل غيب جوهره القابل لفيض الحكمة ولا يدعه يتمثل فيه شيء من المعاني الصحيحة.

---

(١) سورة المائدة: ٩١.

٢ ـ في العلم والتعلم:

قال الرسول عليه الصلاة والسلام علم الباطن سر من أسرار الله عزوجل، وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده.

... وإن استطاع ألا يستفيد فائدة واحدة إلا من شيخ حاذق مرشد ثقة أمين فليفعل، وإن لزم الأمر أنه يستفيد من غير ثقة أمين، فينبغي أن يتدبر تلك الفائدة بعقله، ويتأملها بفكره، ويعرضها على شيخ أمين لئلا تكون تلك الفائدة ملبسة بالحق وباطنها عكس ظاهرها، وقد جاء في قول رسول الله (ص): تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله، ثم تعمل برهة بسنة رسول الله ثم تعمل بالرأي فإذا عملوا بالرأي فقد ضلوا وأضلوا.

وأقوال المضلين المدلسين كالملبس الفضة الصافية على النحاس ليجوزها على العمي من الناس، وكمن لبس الباطل بالحق حتى أضل به كثيراً من الخلق.

وكذلك أيضاً يجب عليه ألا يفيد أحداً فائدة واحدة برأيه ولا بقياسه بل يعلم أنها مأخوذة عن مفيد حاذق ثقة أو شاهد من كتاب الله وينبغي عليه أن لا يستحي ولا يتكبر إذا سئل عما لا يعلم أن يفول لا أعلم، ولا يستحي إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه لأن تفسير دين الله وحكمته بغير برهان مهبطة عظيمة في الدين وكما أنه حرام على صاحب المال إمساكه عن الصدقة والبر للإخوان، كذلك حرام محض على صاحب العلم والمعرفة إمساك الإفادة عن مستحقيها، لأن بذل العلم لمستحقه فرض لازم من رب العالمين، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه، وقال أيضاً: علم لا ينفع ككنز لا ينفق منه...

٣ ـ في محاسبة النفس ومقاومة الغضب:

... إن رآها (النفس) وانية عن طلب الحق، راضية بالعجز والفتور لا تصغي إلى مواعظ الحكمة إصغاء الأولياء الصالحين، فلينذعر الذعر الكلي،

ولا يرمي سوط التأديب من يده لحظة واحدة، ويجعلها عدواً لا يفارقه طرفة عين، ويقبح عليها فعلها ويذكرها به كل ساعة وينظرها بعين النقصان. ولا يحنو عليها ويعرفها ما هي واصلة إليها من العذاب السرمدا دامت على العجز والتقصير فلعلها تنهض بعد العجز وتنشط بعد الضعف وتتسع بعد الضيق وتتيقظ بعد الغفلة.

وإذا مثل لها العذاب الأبدي، والثواب السرمدي نصب عينها، هربت من هجير العذاب إلى ظل الرحمة والثواب، واستسهلت الظماء والنصب والمشقات فيما يؤدي إلى أفخر المنازل وأعلى الدرجات، والعبد لا يهيجه إلى الإستقامة ويسرمده فيها إلاّ شوق مقلق إلى المشاهدة والثواب وخوف القطيعة والعقاب

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام...

الدنيا لا تصفوا لمؤمن، وكيف وهي سجنه وبلاؤه؟.

فعلى العبد أن لا يمكن منها حزناً على فائت من أمر الدنيا لا من موت من يموت ولا لرزق يفقد، بل وعلى ما يأتي من الأولاد والأرزاق لأن حزن الإنسان على فائت لا يرجع، ولا يرغب في الفاني ولا يزهد في الباقي وقال عليه الصلاة والسلام.

أكثروا ذكر الموت هادم اللذات، فإنه لا يكون في كثير إلا قلّله ولا في قليل إلا أجزله...

ولا يمكن منها (النفس) غضباً أبداً لأن الغضب نار محرقة يؤثر في النفس كتأثير النار في الحطب، فإذا لم يطفأ في بادىء أمره إشتعل وقوى حتى لا يستطاع دفعه أبداً... فالنار في بدئها وهي شرارة يمكن إطفاؤها بجفن العين وإذا أضرمت وعظمت تبلغ إلى حد لا تطفئها ألوف من الخلائق.

فكذلك الغضب في مبتدأ أمره إخماده سهل وإذا تمكن من صاحبه واستولى عليه أهلكه هلاك الأبد وقال سيد المرسلين: «لا تغضب فإن الغضب

مفسدة» وقال بعض الحكماء: ليس الغضب إلا من ضعف النفس فإما من استطاع أن يقهر غضبه فهو الشجاع البطل ونقل عن الصادق عليه السلام: الغضب مفتاح كل شر.

وقد حث الأمير السيد على إستعمال جوارح البدن فيما خلقت له وهذه الجوارح هي اللسان والعين والأذن واليد والرجل والبطن والفرج فقال:

١ ـ في اللسان وصدقه:

اللسان هو أبو الكبائر، والكاسر الذي لا ينفع معه شد الجبائر، فيجب على العبد أن يحفظه من الكذب بالكلية، وما تحلى اللسان ولا الإنسان بمثل الصدق وقال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ وقال ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**﴾. ويجب أن يحفظه من الوعود الكاذبة فإن الإنسان مرتهن بوعوده وإخلاف الوعد ضرب من الكذب.

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: عدة المؤمن نذر لا كفارة له.

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام: عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرض، وذلك قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون**﴾.

وإن استطاع ـ العبد أن لا يعد أحداً بوعد البتة فهو أكمل ويجعل إحسانه إلى إخوانه، ويفضي ما يقتضيه إلى الإخوان وغيرهم فعلاً بلا قول، وإن اضطر إلى الوعد ولا بد منه فيعلقه بالمشيئة ويقول في كل وعد ـ إن شاء الله ـ ويحرص كل الحرص على أن لا يخلفه، فالاخلاف من إمارات النفاق، وخبائث الأخلاق والكذب هو الداء العضال.

وقال: «إن الكذب كذبان الأول وهو الأعظم في إنكار وجود الله والكذب بآياته فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا**﴾ وقوله: ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾.

والكذب الثاني أن يتكلم الإنسان كذباً عن نفسه أو عن غيره في معاملات الدنيا وغيرها، والواجب على الإنسان أن يمسك لسانه عن الكذبين بالكلية.

ثم يحفظه من الزور والبهتان، والغيبة والنميمة والفواحش بأجمعها، ثم يحفظه من الثناء على نفسه فإن شاكر نفسه مذموم عند الله وعند الناس، وإن أصغوا إليه ولو كشف الإنسان للناس سريرته لأنفوا منه أنفتهم من الجيف. ثم يحفظه من الحلف بالكلية أصلاً إلا لضرورة توجب وقال في متَّهم لم يحلف مع الضرورة أنه أوجب على نفسه غرم المال، وحصل له التغرب والتشريد.

فدل من هذا الكلام على أن الإيمان بلا ضرورة ولا لزوميه لا تجوز أصلاً. وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الحلف حنث أو ندم، وقال أيضاً، الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

وجاء في قوله تعالى: **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾** وجاء عن لسان الصادق عليه السلام: «لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإن الله عزوجل قد نهى عن ذلك. فقال عزوجل: **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم﴾**.

وجاء في حديث رسول الله (ص) لعلي عليه السلام، يا علي: لا تحلف بالله كاذباً ولا صادقاً من غير ضرورة، ولا تجعل الله عرضة ليمينك، فإن الله لا يرحم ولا يرعى من حلف باسمه كاذباً.

واللغة الحلافة تدل على كذب أصحابها. والحلف بالله تعالى عزوجل لم يكن من ذوي النباهة أن يذكره في حق ولا باطل، ثم يحفظه ـ اللسان ـ من المماراة والمخاصمة والمناقشة للناس في الكلام، فذلك إيذاء للمخاطب، وتجهيل له وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم، ثم هو مشوش للعيش، فإنك لا تماري سفيهاً إلا ويؤذيك، ولا تماري حليماً

إلا ويقليك ويحقد عليك... ومن الفروض اللازمة في حفظ اللسان طول الصمت ليعتاده ويصير الصمت سجية له، وفي الصمت يتمكن القلب من الفكر، ويجول في ميادين الحقائق، ويغوص في بحار العلوم، وفي الصمت منجاة من الشرور. وبالجملة أنه لم يكن من الجوارح السبع جارحة تجر البلاء وتوقع في الدمار وتخرب الديار، ويمحق الأعمال ويُغضب الملك الجبار أعظم من اللسان وقيل ما خلق الله شيئاً أحق بالسجن من اللسان، وسجنه طول صمته عن الكلام إلا فيما ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي بميزان الحكمة والعدل...

٢ ـ في العين:

والعين إنما خلقت للعبد ليستعملها في النظر بالإعتبار في حكمة الله وقدرته وفي مصنوعاته، ويهتدي بها في الظلمات، ويستعين بها في الحاجات، وينظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات، ويعتبر بما فيها من الآيات، ليكون اعتبارها بذلك سبباً للوصول إلى خالقها فواجب على كل إنسان إذا نظر إلى شيء أن يتذكر صانع ذلك الشيء وإنه أودع فيه حكمة وإن لم يدركها. ومن الفروض اللازمة في العين أن يصونها ويحميها من النظر إلى خيانة أبداً.

وقال من هذه الناحية في آداب المؤمنات: فالحذر الحذر معشر المؤمنات أن تنظر واحدة منكن إلى رجل مؤمن أو مخالف إلا بالعين التي تنظر بها إلى إبنها أو أبيها. وقال: «ولا تمكن عينيك في النظر إلى شيء إلا الشيء الذي يحركك لذكره فإنه يقول تعالى: ﴿**الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً**﴾ وقيل النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله أعطاها الله تعالى إيماناً يجد حلاوتها في قلبه، وقيل العينان تزنيان وزناهما النظر بشهوة، والفم يزني وزناه التقبيل، والقلب يهم أو يتمنى، وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، العينان تزنيان، واليدان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني.

والوصية بحفظ العين ليس عن الزنا فقط، بل إنه لا ينظر إلى محرم من محارم الله تعالى كنظره إلى مال الغير يريد أخذه وتناوله، ونظره إلى أحد من أهل الخير باستحقار أو أزورار أو بمقته أو بغضه، بل يجب نظره إليهم بمحبة وصفاء واستحلاء وتبجيل وتكريم وتعظيم وتواضع، وجاء عن الإمام علي عليه السلام: «لا تحقِّروا ضعفاء إخوانكم فإنه من احتقر مؤمناً لم يجمع الله عزوجل بينهما في الجنة إلا أن يتوب».

وجاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من استذل مؤمناً أو مؤمنة أو حقره لفقره أو قلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم يفضحه...

ثم لا يعود عينه كثرة النوم بل يلازمها بالسهر في عبادة الله تعالى ودراسة كتابه العزيز وإن كان له عادة في كثرة النوم فيفطمها عنه بالتدرج، حتى تألف السهر ويصير ذلك عادة وطبيعة وقد قال تعالى في القرآن المجيد: **﴿قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه﴾**...

وليكن نومه على خفة من الطعام وإذا آوى إلى فراشه فليقل: «اللهم إني إليك أويت، ورضاك نويت، اللهم أنم في طاعتك عيني وأدم في رضاك عوني، اللهم إجعل لك يقظتي ونومي، واجعل في طاعتك ليلتي ويومي، اللهم أحرسني بعينك التي لا تنام...».

٣ ـ الأذن:

والأذن يستعملها في سماع حكمة الباري والإصغاء إليها والإنصات المحض لوعي الحق والصدق، لأن الأذن هي القمع الذي يتشرب المسموعات إلى القلب فاحذر أن تملأه بشيء يكدر عليك قلبك فإن له آفات كآفات العين بل أكثر وكن «من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» واجعل عقلك فاصلاً بين أذنك وقلبك حتى يستعرض ما يدخل فيها قبل أن تعرضه على قلبك فإذا كانت كذلك كانت أذنه خير.

لا تكن أذنك قوساً ترتمي ⁕ أسهم الأقوال منها لفؤادك

وليكـــن عقلـــك فيهـــا حـــاجبـــاً   يـــزن الأقـــوال فيهـــا بـــانتقـــادك
وإذا نـــوديـــت منهـــا فـــاستمـــع   مستجيبـــاً واطـــرح مـــن لـــم ينـــادك

وقال غيره: أما الأذن فاحفظها من أن تصغى إلى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض في الباطل، وذكر مساوىء الناس، فإنها خلقت لتسمع بها كلام الله سبحانه وحكمة رسوله وأوليائه صلوات الله عليهم، وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم، فإذا أصغيت بها إلى شيء من المكاره صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك وهذا غاية الحسرات، ولا تظنن أن الأثم مختص به القائل، فإن المستمع أحد المغتابين، ولا تصغ بها إلى كذب، ولا بهتان ولا نميمة ولا هزء ولا هزل، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾ (سورة الإسراء: ٣٦)، وقال: ﴿**وقد نزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾ (سورة النساء: ١٤٠).

وجاء عن علي عليه السلام، سامع هجر القول شريك القائل. وقوله: سامع الغيبة أحد المغتابين.

وقد جاء عن الصادق عليه السلام: فرض على السمع أن يتنزه عن الإستماع إلى ما حرم الله وأن يعرض عما لا يحل له مما نهى الله عزوجل عنه، والإصغاء إلى ما أسخط الله عزوجل، فقال في ذلك: وقد نزل عليكم...

وبالجملة، إن جميع ما فرض على اللسان في النطق بالصواب والإمساك عن الخطأ فرض مثله على الأذن من إستماع الصواب والإصغاء إليه، والصدود عن سماع الخطأ والإنحراف عنه، بل في سماع الأذن للفحش معاذير تعذر فيه إذا سمعته وليس للسان عذر في نطقه في الفواحش، لأن السمع مجبر على السماع إن شاء أم لم يشأ أما اللسان مختار لما يقول، وقد

ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام، لكل شيء فاكهة وفاكهة السمع الكلام الحسن.

٤ ـ اليـــد:

واليد فاحفظها عن تناول المال الحرام، أو تؤذي بها أحداً من الخلق، أو تخون بها أمانة أو وديعة، أو تكتب بها ما لا يجوز النطق به فإن القلم أحد اللسانيين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه... قال الله تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ فلا تمدها إلى محرم، ولا تبسطها كل البسط إلى محلل، ولا تجعلها مغلولة إلى عنقك عن العطايا ولا تقبضها عن بسطة المكارم، ولا تمدها لمسألة إلى غير الله، ثم يستعملها في مساعدة إخوانه في ضروراتهم، كالكتابة والصنايع والأشغال وغير ذلك، ثم تعليمها صنعة تليق به يستعين بها على قيام أوده، ويدفع بها كثيراً من الفقر عن نفسه، وأجل الصنايع وأعظمها الكتابة، فلا يحل لأحد أن يهمل نفسه بلا تعلم الخط، ويحرم عليه أيضاً إهمال ولده أو زوجته بلا تعليم الخط، وإذا كان لا يحل للإنسان إهمال يده بلا صناعة لأجل الإستعانة بها على قيام حاله، فكذلك يحرم عليه تعليم يده الصنعة للمباهاة والإفتخار وللتعمق العظيم والتدقيق الكثير قصداً للجاه والصيت

٥ ـ الرجـل:

... والرجل، فيتجنب السعي بها في غير مرضاة الله عزوجل، وتبديل نعمة الله منها كفراً، بكثرة الركوب ترفعاً عن المشي، فأقل ما في ذلك أن قواك تضعف، وربما صرت إلى الزمانه وعليك بها في عيادة المرضى، وشهادة الجنائز، وفي حاجة أخيك إذا أمكنك السعي بها وبالجملة فلتكن مساعيك بها لك لا عليك.

فاحفظها عن أن تمشي بها إلى حرام، أو تمشي بها إلى باب سلطان، فالمشي إلى السلاطين من غير ضرورة معصية فإنه تواضع وإكرام لهم، وقد

أمر الله تعالى بالإعراض عنهم وهو تكثير لسوادهم وإعانة لهم على ظلمهم.

وإن كان ذلك لسبب طلبه مالهم فهو سعي إلى حرام، فما ظنك بالتواضع للغني الظالم، بل السعي بها إلى حوائج إخوانه وقضاء أشغالهم فرض لازم. وقيل من لا يمشي في حاجة ولي الله ابتلى بالمشي في حاجة عدو الله، ثم يعودها «الرجل» المشي والحركة ويكون ذلك سبباً للصحة وإزالة السقم ويتسبب له بواسطة ذلك يقظة ونباهة وكان أفلاطون الحكيم وغيره يعلمون تلامذتهم الحكمة وهم يمشون حتى ترتاض النفس مع البدن ومن أجل ذلك سمو المشائين.

٦ ـ البطن: والحلال والحرام والشبهة:

جاء في قوله تعالى: ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾ وجاء في الحديث الشريف: «ما نهى الله سبحانه عن شيء إلا وأغنى عنه» وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «من أكل لقمة من حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» وقال: «إن الله عزوجل حرم الجنة جسداً غذى بحرام» اذن. . . فاحفظ البطن عن تناول الحرام والشبهة وأحرص على طلب الحلال فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر على ما دون الشبع، وطلب الحلال فريضة على كل مسلم، أما المعلوم فظاهر، وهو الحرام المحض، كالمال المسروق، أو المغصوب، أو شرب الخمر أو ثمنه، أو تناول شيء من المسكرات، قليلة أو كثيرة، أو الربا وقال بعضهم، أما النبات فلا يحرم منه شيء إلا ما يزيل العقل، أو يزيل الحياة أو الصحة، فمزيل العقل البنج والخمر وسائر المسكرات، ومزيل الحياة السموم، ومزيل الصحة الأدوية في غير وقتها، ومن الحرام المحض إجرة الزنا، والنياحة وغناء المرأة وإجرة الشعبذة، وكلما استكثر الإنسان من النار قرباً، كان حريقة أسرع. كذلك الظلمة، كلما زاد العبد منهم قرباً إزداد من الله بعداً.

ومن الحرام أيضاً ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف، فمن لم يشتغل بالعلم والفقه فما يأخذه من المدارس حرام. ومن ارتكب معصية تردُّ

بها الشهادة فأخذه باسم الصوفية من وقف أو مبرة حرام وقال تعالى: **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾**، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أكل الحلال نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة في قلبه وعلى لسانه»، وقال: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه حرام لا يقبل الله صلاته ما دام عليه منه شيء وقال: كل لحم من حرام فالنار أولى به: وقال: «من لم يسأل من أين اكتسب المال لا يسأل الله من أين أدخله النار».

وقال: «من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار».

وقال يحيي بن معاذ: «الطاعة خزانة من خزائن الله، مفتاحها الدعاء واسنانه لقمة الحلال. وقال بعض السلف: «من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أم لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعت جوارحه ووفقت للخيرات».

واجتناب الشبهات فرض لازم، لأن من وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه...

وقال بعض الصالحين: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى عظمة من عصيت. وقال ابن المبارك: رد درهم من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف.

وورد عن لسان الرسول (ص) لرد دانق من حرام يعدل عند الله سبعين الف حجة مبرورة وقوله: «ترك لقمة حرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً».

وكان بشر الحافي من الورعين، فقيل له، من أين تأكل؟. قال: من حيت تأكلون وليس من يأكل ويبكي مثل من يأكل ويضحك، وقال: يد أقصر

من يد ولقمة أصغر من لقمة فهكذا كانوا يحترزون من الشبهات.

وفي الحقيقة، من كان الغالب على رزقه الحلال من زراعة أو تجارة فلا يطلق على ذلك الرزق إلا حلالاً. وإن دخل عليه بعض الشبهة والحرام فلا يحيله ذلك القليل إلى الحرام لغلبة الحلال عليه، وكذلك من كان الغالب على رزقه الحرام من ربا أو ثمن خمر أو من أموال الظلمة أو القضاة أو المكوس أو ما شاكل ذلك فلا يطلق على ذلك الرزق إلا حراماً.

ولما كان الغالب على العبد الطائع التقوى والصلاح والميل إلى الواجبات أطلق عليه أنه من أهل الحق، ولا عبرة بتلك النواقص التي خرجت منه لتغلب جانب الصلاح عليه ولاستغراق النورانية لتلك الظلمة ومحقها، وكذلك العبد العاصي، لما كان الغالب عليه العصيان والميل إلى المحرمات، أطلق عليه أنه من أهل الباطل، ولا عبرة بتلك الأعمال الصالحة التي خرجت منه لغلبة جانب العصيان عليه، ولاستيلاء الظلمة والشهوات لديه.

وأما الشبهات فكثير من الناس يسهل فيها ويستقل خطأها لكونها غير محققة وهذا غلط مفرط، والتسهيل فيها واستقلالها أعظم خطأ عند الله من فعلها مع الإقلاع عنها لأنه مأثور أن طرف الشهوات متصل بالشبهات، وطرف الشبهات متصل بالحرام، والحرام متصل بالنار فصح أن الشبهات توصل إلى النار، كما قال عن الكذب فمن كذب على أخيه كذب على مولانا سبحانه، وانسلخ من إيمانه، فالذي كذب على أخيه، يتسلل الأمر في كذبه إلى الله خالقه ومن سهل الكذب على أخيه، فقد سهل في الكذب على الله تعالى، اعاذنا الله من ذلك، وهكذا الشبهات فمن سهل فيها فقد سهل في الحرام، ومن سهل في الحرام فقد حصل على غضب البار.

وكذل ينبغي ويحسن ترك الإلتماس لأموال الأطباء والحكماء إذا كانوا كثيري التردد على الحكام الظلام. وكذلك يجب على العاقل الورع الدين التجنب لأموال الأمراء الطامعين بالفلاحين الذين يوظفون عليهم أموالاً زيادة على ما يستحقونه من الخراج وقسم الغلال ويسمون تلك الزيادة «خدمة»

ويستحلونها لأنفسهم ويأخذونها قهراً وغصباً، وهو حرام محض، ومستحلها عاصٍ لله.

وأما إذا دعي العبد إلى طعام معلوم العين أنه مسروق أو مغصوب أو ربا أو ثمن خمر أو إجرة زنا، أو إلى شرب خمر أو شيء من المسكرات فلا يجوز له الإجابة أصلاً، ولو وقع في إهانة وعقوبة.

والمطلوب من العبد أن تكون المحرمات والشبهات عنده أحر من النار، لأنه إذا كان لإحد من الناس مال عظيم من القناطير المقنطرة من الذهب والجواهر وهي وسط نار عظيمة محيطة بها من كل الجهات، فلا يخطر ببال صاحب المال أن يتناول تلك الجواهر والذهب من وسط تلك النار، ولا يعزم على ذلك ما دامت النار مستعرة عليها ومحيطة بها، فكيف بمن له عقل صحيح أن يتعرض للمحرمات والشبهات، والرب جل جلاله حاضر مطلع، قادر جبار الجبابرة وغضبه وسخطه أشد وأعظم من النيران ولو عظمت، بل ولو امتلأت الأرض نيراناً، لكان غضب الله أحر وأعظم فلله العجب كيف أن العبد لا يتناول شيئاً من تلك الجواهر ولا يخطر بباله التماسه لخوفه من إحتراق يده أو رجله، فكيف يتجرأ على معاصي ربه وهو حاضر عنده لا يفارقه طرفة عين، وهو جبار الأرض والسموات وقاصم الفراعنة والجبابرة، فكأن هذا العبد هاب حريق نار الدنيا أعظم مما هاب حريق نار غضبه جل جلاله.

قيل: ينبغي للشيخ أن يحبب الله تعالى إلى عباده فيسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس إنجلت مرآة القلب، وانطبعت فيها أنوار العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة جلال القدم، ورؤية الكمال الأزلي فأحب العبد ربه لا محالة وذلك ميراث التزكية.

وقال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿**وقد أفلح من زكاها**﴾ وفلاحها بالظفر بمعرفة الله، وأيضاً إذا انجلت مرآة القلب لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها

وماهيتها ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلتين فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة، هذان الحالان المذكوران في أمر الحرام والشبهة هما أول فريضة على الإنسان في موضوع البطن، بل هما الأعظم والأجل، بل لا يصح الدين إلا باجتنابهما في النية والفعل، بل لا يحصل رضى الله تعالى وشفاعة صفيه صلى الله عليه وسلم إلا بتركهما، فإذا تطهر الإنسان من الحرام والشبهة وتجرد منهما تجريداً خالصاً يجب عليه بعد ذلك أن لا يأكل من الحلال إلا عن جوع ولا يملأ المعدة فإن البطن حقيبة الإنسان، ومن ملأ الحقيبة أثقلته عن النهوض وأعجزته عن أداء السنن والفروض.

وقيل لا وعاء أبغض عند الله من بطن امتلأ من حلال، وحجة تحريم امتلائه من حلال ظاهرة، وذلك إذا امتلأ من الأكل هاجت به شهوة الشرب، وإذا امتلاء من الإثنين حل به الكسل، وإذا تراكم عليه الكسل والفتور تسلط عليه النعاس وغلبه النوم وزيادة النوم تضييع في العمر الذي هو رأسمال مال الأعمال جمعيها، ولم يجد منه بدلاً.

وعن أفلاطون قيل: السيرة التي ركبها الناس في الأكل ثلاث: إحداهن ألا نأكل إلا عند أذية الجوع أو خوف زيادته علينا، والثانية أن نأكل أشياء تصلح فيما بين الإنتفاع بها والتذاذها والثالثة إننا نأكل من طعام لحسن صنعته وتكامل زينته، لا لأننا جياع أو محتاجون إليه. فالسيرة الأولى من هذه السير للمبرِّزين في الفضل، والثانية لمن دونهم، والثالثة لذوي النقيصة والبطالة وسوء الإختيار. وقيل إن من آفات الإمتلاء إذا شبعت البطون قست القلوب.

وعن بعض أصحاب الفضل: من آفات الشبع والتخمة أنه، عقوبة للقلوب ومزمن للأجساد، وذهاب البهاء، ونسيان الرب، وعمى القلب، وهزال الروح، وسلاح الشيطان وجراحة الدين، وذهاب اليقين، ونسيان العلوم ونقصان العقل، وعداوة الحكمة، وذهاب السخاء. وزيادة البخل. ومزرعة إبليس. وترك الأدب. وركوب المعاصي. واحتقار الفقراء. وثقل

النفس وبذر الشهوات، وزيادة الجهل، وتكثير فضول الكلام، وزيادة حب الدنيا، وتنقيص خوف الله، وإنه يكثر الضحك، ويحبب العيش، وينسي ذكر الموت، ويهدم العبادة ويقلل الإخلاص، ويذهب بالحياء ويهيج عادة الأشواق، ويغري بالنوم، ويكثر الغفلة، ويسبب تفرق الأحباب، ويحرم الأعمال، ويكدر الصفو، ويذهب الحلاوة من القلب، ويحبب الشيطان، ويبغض الرحمٰن، ويكثر الغم يوم الحساب ويقرب من النيران ويبعد من الجنان، لأنه سبب المعاصي، ويحرك الكبر، ويفتت الجسد، ويقلل الشكر، ويذهب الصبر فهذه ست وأربعون خصلة تهيج من الشبع وكثرة الأكل.

وقال في الإعتدال بين الشبع والجوع: «وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط، وهو الإعتدال. ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة القيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج، فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط ولو ماتت ماتت على الوسط، لأن الوسط أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة، كذلك هي الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحليقة بالنملة.

فمن جعل أخذه مصالح الجسم لِمَحْضِ الشهوات فهو من البهائم لأنها كذلك، وإذا أسرع الإنسان في الأكل فليعلم أنه ضيف الله. لأنه تعالى هو الذي يطعم ولا يطعم، وليسمه في الإبتداء ويحمده في الإنتهاء، وإن استطاع فليعمل في كل لقمة، وليعرف نعمة الله عليه في كل حال، وعلى سائر الوجوه ينبغي للعبد إذا تناول الأكل فلا يشبع بل يرفع يده عنه وعنده بقية من اشتهائه، لأن للجياع على الله سبحانه أدلالاً فلا ينبغي على العبد أن يفوت حصته من ذلك الادلال بملازمة الشبع، لأن الشبع ينسِّي المُطْعِم الرزَّاق والجوع يذكره به.

وقال بقراط كلاماً هذا نصه: استدامة الصحة يكون بالتحفظ من الشبع

ونزول التكاسل عن التعب وقال جالينوس: السكون شر عظيم في حفظ الصحة، كما أن الحركة المعتدلة خير عظيم... وكما أن الرياضة قبل الطعام أنفع من جميع الأشياء في دوام الصحة كذلك الحركة بعد الطعام أضر من جميع الأشياء...

٧ ـ في الـزواج:

... الواجب المطلوب في أمر الزواج ألا يخطب الرجل امرأة خطبها غيره مع رضاها ورضى وليها بالخاطب الأول. وينبغي أن يكون الصداق معلوماً وخفيفاً ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المغالاة في الصداق وقال: خير الصداق أيسره.

وقال الصادق عليه السلام: أما شؤم المرأة فكثرة مهرها وعقوق زوجها.

وينبغي أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة وكذلك أمر الزوجة إلى سمع الزوج بصورتيهما ولا ينبغي أن يكون الواصف لأخلاق المرأة للرجل وأخلاق الرجل للمرأة، إلا من هو صادق وخير، عالم بقوانين الدين والحق، ولا يميل إليها فيفرط في الثناء، ولا يحسدهما ويقصر فالطباع مائلة في مبادىء النكاح إلى الإفراط والتفريط، وقل من يصدق فيه ويقصد، والخداع أغلب، وينبغي أن يكون الواصف لأخلاق الزوج والزوجة إثنين أو أكثر، ولا يكون الواصفون لذلك جملة بل أفراداً، فإن توافق وصفاهما كان ذلك بياناً على صحة الموصوف بخير كان أم بشر. ويحرم على الواصف إخفاء شيء من حال الموصوف لأن الواصف جعل أميناً على نقل ما علم أو سمع من ثقة.

ومن آداب الزواج إحضار جماعة من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين الذين هما ركن الصحة. وينبغي أن ينوي بالنكاح طلب الولد لا مجرد الشهوة والتمتع، فيصير عمله عمل الدنيا. ومن الخصال المطلوبة في المرأة الدين وحسن الخلق، والنسب، وقوة الحياء وخفة المهر، وأصل الأصول الدين

وحسن الخلق، لأن الخلق الحسن عون عظيم للمرأة على دينها وعلى طاعة زوجها فتستريح وتريح.

وينبغي أيضاً على الرجل، أن لا ينكح امرأة منانة، ولا حدَّاقة، ولا براقة ولا شداقة، فالمنَّانة هي التي تمن على زوجها فتقول: فعلت من أجلك كذا وكذا. والحداقة هي التي تنظر إلى كل شيء بحدقتيها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه، والبراقة أن تكون مشغولة طول النهار في صقل وجهها وتزيين حالها ليكون وجهها براقاً ومصطنعاً، والشداقة الكثيرة الكلام.

وقيل لبعض الفضلاء صف لنا المرأة الحرة الكاملة فقال: المؤمنة ناظرة في عيبها مقبلة على ربها، خفي صوتها، كثير صمتها، لينة الجنان، عفيفة اللسان ظاهرة الحياء، ورعة عن الخنا، بعيدة عن الأذى، واسعة الصدر طويلة الصبر قليلة المكر، كثيرة الشكر، لها قناعة بالعفاف، وإيثار بالكفاف، ورحمة للأهل، ورفق بالبعل، لا تسيء إليه، ولا تغلظ عليه، ولا تكون له حيث النكد، ولا تكلفه ما لا يجد، تضع له خدها، وتخلص له ودها، تملأ منه نظرها، ولا تترك منه خفرها... ولا تجفوه في عسره ولا تقلاه في فقره، بل تزيده في الفقر وداً، وعلى الإقتار حباً تلقى غضبه بحلم وصبر، ومعاشرته بود وشكر، والمطلوب من الرجل التحلي بهذه الصفات ليتم الزواج السعيد، والإنصاف والمساواة، وجاء في الحديث الشريف: إذا سقى الرجل امرأته أجر وقال الرسول (ص) اتقوا الله في الضعيفين اليتيم والمرأة فإن خياركم خياركم لأهله. وجاء على لسان الصادق عليه السلام: من حسن بره بأهله زاد الله في عمره.

ويتوجب على المرأة الفاضلة أن تكون داخلة في طاعة زوجها حافظة لحقوقه ملازمة لخدمته، مسارعة لإمتثال أمره، ثم من الفرض اللازم أيضاً على الرجل أن يحسن إليها، ويعلمها الدين والخير والآداب في الدين والدنيا، ولا يجور عليها، ولا يكلفها فوق طاقتها وينصفها، ويذكر قول النبي (ص) الا وأن الله ورسوله بريئان ممن أضر بامرأة حتى تختلع منه، وقول

علي عليه السلام، لا يكن أهلك أشقي الخلق بك».

وإن ظلمها وجار عليها فتشكوه إلى من يحكم عليه من مشايخ الدين لينصفها منه.

وأما من أراد من الزوجة الولد، خاصة، وتدبير المنزل، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب، لأن الجمال على الجملة باب من الدنيا، فإذا قصده العبد خاصة فهو عاص ومخالف لقول رسول الله (ص).

لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزجوهن لأموالهن، فعسى اموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين.

وأما إذا قصده (الجمال) من أجل حسن الأولاد المستنتجة منها فيجوز ذلك، وأما لمجرد الشهوة فلا، لأن المطلوب غير ذلك، وقال النبي (ص) «إياكم وخضراء الدمن» وهي المرأة الحسناء في منبت السوء... وقال كذلك تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع وقال أيضاً: تعس عبد الزوجة...

وإنما قال ذلك لأن الزوج إن أطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس.

وحق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً، وقال الله تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ وسمى الزوج سيداً فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً. فإن كان الرجل قائماً بتعليم زوجته، فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر الرجل فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصي الرجل بمنعها. والرجال قوامون على النساء فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها، وهو أن يقوم أولاً بالوعظ والتحذير والتخويف.

... وأما الفقير فليتجنب التزويج وليأخذ بقول الله تعالى: ﴿**وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله**﴾ وما أمرك بذلك إلا وهو أعلم بالمصلحة والمعنى في قوله يجدون نكاحاً أي لا يكون عندهم مال وقوة يقوم بنفقة المرأة.

وليدع الفقير قول من يرغبه ويقول: المرأة يأتي رزقها معها، ورزق الواحد كاف للإثنين، والله تعالى هو الرازق، وقال ذلك جل وعلا. فاعلم أن الفقير إذا تعرض للتزويج فقد أوقع نفسه في شبكة الدنيا فلا يلومن غيره.

إذا كنت لا تنهض بنفسك مملقا وتسعى بأن تزداد غباً مع الفقر
فإنك كالملقى إلى النار نفسه وقد كان يشكو في الهجير من الحر
فلا يجعلن اللوم إلا لنفسه ولا سيما إن لم يكن حسن الصبر

٨ ـ في المال والإحتكار:

قال الرسول عليه السلام: «إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم».

وقد قيل يهلك الناس في شيئين: فضول المال وفضول الكلام، فالسعيد من اقنعه فضل ماله، وأمسك فضل قوله، وفضول الأموال هو كل شيء عند الإنسان من الدنيا لغير حاجة وضرورة، وهو غني عنه، وإدخار الأموال عند الله تعالى يصرفه على عباده الصالحين المعوزين، خير من بقائه عند من هو في يده لأن المال ما دام لا ينصرف فيما ينبغي فما لصاحبه الذي هو بيده منه إلا الاسم والإثم ومستعار ومعاد، وعن قليل يتحول عنه ويزول من يده، ويبقى عقابه لا يحول ولا يزول وإذا أصرفه فيما ينبغي، وعلى من ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي، فقد صار ملكه، وحصل له منه ثواب عظيم لأنه بذله لوجه الله الكريم وقال الإمام علي عليه السلام: الإحتكار شيم الأشرار وقال الرسول (ص) المحتكر ملعون.

فمن احتكر على أبناء جنسه سلعة يضطرهم إلى الإجحاف بهم في أخذها فهو ملعون لأنه يجاهد الضعيف عنه بفضل النعمة عليه ومأثور عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام إنه قال: من أراد دوام النعمة عليه من الله تعالى فليكرم إخوانه ومن منع أخاه شيئاً من عرض الدنيا وحطامها لم يمت حتى يسلط الله عليه من يأخذ منه ما منع أخاه ويروح منه في غير طاعة الله

ويرى عمله عليه حسرات يوم القيامة وقال: اغتنموا الفرصة في حقوق إخوانكم فإنها تمر مر السحاب. وقال: من لم يمش في حاجة ولي الله ابتلى بالمشي في حاجة عدو الله...

٩ ـ في الدّين: واجبات الدائن والمدين.

قال الله في كتابه العزيز: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه...﴾**.

وقال الرسول (ص): إياكم والدين فإنه هم بالليل وذل بالنهار.

وعن علي عليه السلام: «كثرة الدين يصير الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً» وعليه لا يجوز للمتدين أخذ مال أحد من الناس إلا عن ضرورة بنية صادقة في وفائه وبالإجتهاد الكلي في أنه لا يخلف وعداً إذا أجَّل لوفاء المال أجلا، ويجب عليه أنه من فوره يسجل ذلك الدين ويعين وقت وفائه، ويجب أيضاً على صاحب المال إذا استوفى ماله أو بعضه أن يسجل ما استوفى على الفور ويحرم عليه إبقاء حجة أو تنزيل عنده مع وفاء ذلك بلا خصم بل يخصم الجميع وإن استطاع الإنسان ألا يدع له عند أحد ولا عليه درهماً فردا ولا قيمته إلا ويعينه ويكتبه، فهو أفضل. خصوصاً الذي عليه المال، فذلك ألزم بالحفظ والتعيين من الذي له المال: فإن استدان الخيّر مالاً من خير مثله إلى أجل معلوم وحضر الأجل وعجز المتدين عن الوفاء، وكان الدائن غنياً فيصبر عليه، وإن اضطر إلى غير ذلك فيعطيه.

ومن الناس من يستجيز لنفسه عدم وفاء ما في ذمته إذا لم يكن عنده دراهم عين ويكون له أملاك وحيوانات وأثاث ما اليسير منه يفي دينه، فهذا تصوير فاسد ومذهب واه. بل يحرم عليه بقاء الدين في ذمته مع اقتداره على الوفاء ببيع أملاك أو حيوان أو غير ذلك. وقال الرسول (ص) من يمطل على ذي حق حقه وهو يقدر على إداء حقه فعليه كل يوم خطيئة عشار.

١٠ ـ في الوصية:

جاء في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾.

«... فالوصية تجوز بجميع المال لوارث أو غير وارث» إن كان الموصي حاضر العقل والذهن بدليل صريح قوله عليه الصلاة والسلام: «الوصية حق على كل مسلم» وقال أيضاً: «ما ينبغي لإمرىء أن يبيت ليلة إلا ووصيته تحت رأسه» فيجب إذن على كل من له مال آو دنانير أو دراهم أو أملاك أو غير ذلك أن لا يموت بلا وصية، بل يجب وينبغي أن يكتب وصيته في حال صحته وسلامته، ويشهد عليه من ثقات إخوانه: فإن كان للموصي أولاد صالحون وامرأة صالحة، وليس له مال يكفيهم ولا يقيم أودهم، فيقسم رزقه بينهم قبل موته على ما ينبغي، ولا يجب عليه، وصية بصدقة، بل يحسن ويليق أن يتصدق بيسير من ماله بلا وجوب عليه، بل للقدرة به وإن كان بعض أولاده أخياراً وبعضهم الآخر أشراراً، فيملك غالب ماله للأخيار بشهادة ثقات، ولا يجعل ذلك بطريق الوصية، وإن كان الأولاد صغاراً وما يأتوا بخير ولا بشر، فيدفع لهم من ماله ما يكفيهم ويجري الباقي من ماله، صدقة على إخوانه بطريق يسوغه الشرع، وإن كان الأولاد أشراراً فيصرف مهما استطاع منه في حياته لإخوانه، فيملكهم إياه ولا يترك لأولاده الأشرار إلا اليسير منه اتقاء لشرهم. وإن كان الأولاد أخياراً أغنياء ولهم من الدنيا ما يسد عوزهم فيجعل الغالب من ماله للصدقة وللأولاد الأغنياء اليسير من ماله، وإن لم يكن للإنسان أولاد، وله إخوة أو أخوات فيجريهم مجرى الأولاد إن كانوا أخياراً أم أشراراً.

وفي الحقيقة لا تجوز وصية بصدقة، لا لوارث أو لغير وارث. إلا بعد خلاص الذمة من أموال الناس فإن الإنسان إذا أوصى بدينار لمستحق مضطر،

وفي ذمته حبة من درهم وهو يعلمها ولم يوصِ بها كان عقاب الحبة أكثر من ثواب الدينار.

وعلى كل حال يجب على الإنسان أن يفرغ جهده في براءة ذمته في حياته ومماته وما أحد يستحق في مال الميت حقاً. لا ولد ولا غيره، بوجه من الوجوه، إلا بعد براءة ذمة الميت، وإن كان صاحب الدين موجوداً وله من يقوم مقامه، فيجب على وارث الميت ألا يتناول من أرث مورثه قليلاً أو كثيراً، حتى يقوم على نية الخير في وفاء ما على مورثه وإن لم يبق لنفسه شيء.

١١ ـ في تربية الولد وتأديبه:

قال النبي (ص) أكرموا أولادكم واحسنوا أدابهم.

وينبغي للأب ألا يكثر من فرحه بالذكر وحزنه للأنثى، فإنه لا يدري الخيرة له في أيهما، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له، أو يكون الأبن بنتاً بل السلامة منهن أكثر.

ثم يسميه باسم حسن، ويستحب أن يلقن أول إنطلاق لسانه «لا إله إلا الله» ليكون ذلك أول حديث. وقد جاء عن علي عليه السلام:

حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه ويعلمه القرآن.

واعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، ساذجة، خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوّده الخير وعلمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه، وكل معلم ومؤدب له، وإن عوده الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم به والولي عليه.

وقال إن على الأب أن «يؤدبه ويهديه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية

فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، ويهلك هلاكاً عظيماً، بل ينبغي أن يراقبه في أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة، تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا أوقع عليه نَشْءُ الصبي انعجنت طينته من الخبث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث، ومهما بدا فيه من مخايل التميز، فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى رأى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض الآخر فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على إعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام.

فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ويقول بسم الله عند أخذه، ويأكل مما يليه ولا يسرع في الأكل ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ولا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، ويعود الخبز الخالص في بعض الأوقات حتى لا يصير شرهاً بحيث يرى الادم حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه من يكثر الأكل بالبهائم.

ويجب الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بالطعام الخشن.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك. في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره، ولا يكاشف . . . ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يرخي يديه، ويمنع أن يفتخر على أقرانه لشيء مما يملكه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه، أو لوحه أو أدواته، ويعود التواضع والإكرام لكل من عاشره، والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ شيئاً من الصبيان، بل يعلم أن الرفعة في العطاء لا في الأخذ، وإن الأخذ لؤم وخسة. وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الأخذ

والطمع مهانة ومذلة وإن ذلك من دأب الكلب، فإنه يتبصبص في انتظار لقمه، وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر من التحذير من الحيات والعقارب، فإن آفة الذهب والفضة والطمع فيهما، أكثر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً.

ثم ينبغي أن يشغل في المكتب بتعليم القرآن وبأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس حب الصالحين في قلبه . . .

فهذا قليل من كثير من مآثر وأقوال الأمير العالم العامل المخلص السيد الجليل عبد الله التنوخي نفعنا الله بأقواله، وجعلنا من الذين يسمعون القول . . ويبادرون في العمل الصالح في الدنيا والدين . . .

الفصل العاشر

الشيخ محمد أبو هلال
الملقب بـ «الشيخ الفاضل (٩٨٧ هـ ـ ١٠٥٠ هـ)

منشأه: ولد الشيخ الفاضل يتيماً في قرية «الشعيرة قرب راشيا الوادي وترعرع في قرية كوكبة القريبة منها، وكان له والدة فاضلة حضنته ورعته وصدت عنه العوز بما كانت تنتجه من جهدها في تربية القز ومساعدة الأسر الغنية من الإخوان.

وما إن كبر الطفل محمد حتى بدت على وجهه إمارات التطلع إلى المثل العليا في الحياة وعلامات الخوف والتدين ومحبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الميامين الطاهرين. . .

وكان يقوم برعاية ماعز الأغنياء عندما الحت عليه رغبته في تحصيل العلم، فاصطنع لنفسه لوحاً مطبقاً، وبدأ يسأل أصحاب المعارف عن حروف الهجاء أولاً، ثم تدرج في تحصيلة حتى اتقن القراءة.

وعندما شب محمد انقطع عن رعاية الماعز وشمله شيخ فاضل برعايته، هو الشيخ أبو عباده آل زاكي من راشيا فاستمر الشاب يحرث أرض الشيخ ويتعاون مع والدته في أعمال موسم القز للشيخ نفسه.

وقد أعجب هذا الشيخ بالغلام محمد فكناه: أبا هلال وقد رأى فيه من الحيطة والمثابرة، وحسن السيرة ما أذهله، فتبناه ورعاه بحنان، وفتح

لمطامحه نوافذ الإرتقاء في الأجواء الروحية، ومكن في نفسه غرسة الإيمان، حتى غدا الشاب رفيقاً حميماً ملازماً للشيخ في الحل والترحال.

وقد جاء في كتاب التوحيد الدرزي للدكتور سامي أبو شقرا قوله فيه:

عرفه المشايخ الأجلاء في الجوار، وقدروه ووقَّروه، وتسارعوا إلى مجالسته ومرافقته في خلواته وكهوفه، وانصرف هو إلى التبشير حين تسنح له الفرصة، بالعمل المعروف والنهي عن المنكر.

وكان الشيخ محمد أبو هلال، حين تتم له صحبة إخوانه، وينفحهم بعبير أنفاسه. وقيَّم مواعظه يعود إلى نفسه، فلا يرى لها مستقراً، ترتاح إليه، غير كهوف معتمة منكمشة أي سفح جبل الشيخ يفيء إليها ويطمئن بها، في مناجاة خالقه، ومواصلة جهده وتضرعه سعياً إلى زيادة صقل نفسه، وسمو مرتبته الروحية بدافع فطري صادق متواضع...

أما في دنيا الناس، في عالم الصخب، والتكبر، والجهل، والعناد، فما كان يألف الشيخ القرار، ومضة جفن، لولا نوازعه لإفاضة المواعظ والنصح ولولا إلحاح الإخوان عليه، في التلطف ببعض الزيارات... وما كان أسرعه في الجواب، وألطفه في المخاطبة، وأقدره على الإقناع واجتذاب سامعيه...

وكان رجال فضل كثر يتقدمون منه بالهدايا والصدقات، وكان يرفضها رفضاً بإسلوب لبق مهذب، تعففاً وزهداً، غير أن ضائقة ألمت بالناس، ذات عام، فقصد جماعة من المحسنين شيخنا، متوسلين إليه أن ينعم عليهم بقبول الصدقات وتوزيعها على ذوي الفاقة، فنزل عند رغبتهم عن طيب خاطر، وقام بالمهمة بأصدق ما تتطلبه الأمانة، مما خفف الضائقة يومذاك عن الفقر الملتاح.

كانت هذه الفترة الأولى من السنوات العامرة بالتحصيل والعطاء، من حياة الشيخ محمد أبي هلال. على أنه كان تواقاً أبداً إلى الإستزادة من العلوم

والتبحر في الفقه والنحو والحديث الشريف ومن أين له ذلك، وليس ثمة مكتبات، ولا مشايخ أعلام، فحملته على أجنحة الهمة الكأداء عزيمته الصامدة إلى دمشق، حيث التقى بالرهط الذي تمناه، فسقى واستقى واستثاب حتى تم حفظ القرآن الحكيم غيباً، والتضلع من شروح الإمام البيضاوي، وحسن التجويد، وكان قد نيف على الأربعين وهو لم يبرح الشام وأئمتها النابهين. وحين اكتفى من طلبة العلوم عاد لقريته الأم، يواصل جهوده، سعياً وراء مثله العليا في الدنيا والدين...

وفي المستوى الذي بلغه فخر الدين، من سلطان وحكمة وتجرد، بلغ نظيره الشيخ محمد أبو هلال في روحانيته الصافية، وتقشف وزهادة وإرهاق يحفزه سعيٌ مستعر إستجابة لنداء الواجب الديني، والضمير الإنساني الساهر، فغدا الشعب، يرفل في نعمتين: رفاهية وعزة في المعاش، مع تعشق للفضيلة، واجتناب الموبقات.

وما كان الزمان ليستمر في صفائه طويلاً، ولا كان حلقوم غول الإستعمار ليطبق على نواجذه المدماة، فيدع للشعوب الصغيرة، حرية العيش والمصير، فإذا بالقائد التركي أحمد كجك يوغر صدر السلطان على الأمير فخر الدين، ويزيّف الحقائق، ويزحف بجيوشه الغاصبة إلى الديار السورية ولبنان، وتقبض يده الملوثة بالقسر والعدوان، على سيد البلاد فخر الدين بعد طول حصار، وتسوقه إلى القسطنطينية حيث لاقى حتفه مع أبنائه...

فعادت رياح البؤس والإصطخاب تحمل غيومها السوداء، وصواعقها المدمرة إلى أنحاء الربوع فأمسى الناس، في غم وقهر وعمت الرشوة، ونشطت جراثيم الفساد...

لم يعد للشيخ الفاضل في هذه الحال، إلا الإنكماش في عزلته والتضييق على نفسه والكف عن متابعة تهذيب النفوس، إذا، ما لجدول من الرائق الزلال، أية جدوى، في بحر يعج بأملاح النقائص.

وقد انفضت المجالس العامرة بالصالحين العاملين، وتبعثرت الحلقات الخيرة، مسارب الفضل والهدى، وارتد الإنسان إلى أوجار الخنوع والمسكنة والزُلفى وإلا حُرم المُضغة. في هذا الأصيل القاطب، سولت للكجك نفسه أن يقبض على الشيخ الفاضل طمعاً بالفدية، نظراً لما سمعه عن علو مكانة سماحته في بني وطنه، فأرسل الرقباء، حتى درى بهم الشيخ، فظل رابطاً الجأش، ودعا جماعته قائلاً بما مؤداه:

هذا المجتاج يعصف في نفسه النهم للمال، ويرغب في اعتقالي، عسى أن يفديني أهل الصلاح بما أوتوه، فإني في هذا الظرف العصيب، أهيب بكم، وأطلب تعميم رغبتي على الإخوان أنه ألف حرام على أحد، أن يخسر قرشاً واحداً في هذا السبيل، ذلك الباشا مقصر عن أذية الروح، أما الجسم فليغنمه، فليس بالمتاع الثمين.

بهذا اللسان اللاذع، والقلب الكبير، حاول الشيخ صفع الغازي المجتاح، أحمد كوجك، غير أن القضاء، فصم النزاع، وشك في صدر هذا الطامع سهم الموت في إحدى المعارك فضاعت عليه الفدية.

ولم يعمر الشيخ بعدها طويلاً، ولبث حاضر الوعي حتى الرمق الأخير حيث أشاح بيده إلى من حوله مودعاً وأسلم الروح مطمئناً، وعن عمر يقارب الثلاثة والستين عاماً، في قرية على سفح جبل الشيخ تدعى عين عطا حيث ضريحه حتى اليوم مزار للمتباركين...

وقد حفظ الشيخ أبو علي عبد الملك ـ تلميذ الشيخ الفاضل ـ كثيراً من المواقف والأحكام تجلت فيها نزاهة الشيخ أبي هلال ورحابة صدره وتواضعه وعميق تبحره في العلوم الروحية ومداومته في الصلاة والصيام وكان رضي الله عنه يحكم على كل مريد ـ قصر في الصلاة المفروضة في كتابه الله العزيز بإبعاده عن مجالس الذكر وحلقات التأمل والعرفان... ويبقى حكمه سارياً

حتى يتحقق من مداومة المريد على الصلاة[١].

ومن أقوال الشيخ الفاضل. . .

معاشر الإخوان إياكم الاغترار بأتباع الزمان، والركون والإطمئنان، إلى دار الذل والهوان. . . وحب المجد والجاه والسيط، والعكوف على الشهوات والخلاف والتفريط. . . لا تعشوا عن حقائق الدين، ولا تأخذكم في الحق لومة لائم ـ واستيقظوا من رقدة الغفلة[٢].

ثم يتابع رضي الله عنه ويقول: «الإخلاص لله في القول والعمل، ثم التوبة الخالصة قبل مفاجأة الأجل[٣]، ثم الزهد والورع وضبط اللسان وغض الطرف، واجتناب المحارم، ومحاسبة النفس على كل لحظة وفي كل حال» ثم يضيف: حسن المعاملة في البيع والشراء، والأخذ والعطاء، والقرض والوفاء، وإيثار القنع والنزاهة والعفاف، ثم مخالفة الجسد في ترك الزينة والتكبر، وحب المال، وقهر الغضب، ثم ترك الحقد والحسد والرياء والعجب والغيبة والنميمة. ثم الإمساك عن كثرة الكلام وترك الهذر والهذيان في أمور الدنيا وكثرة الصمت في المحافل.

وقد حذر شيخنا الجليل من التفاخر والتكاثر من الأموال والأولاد والأنساب والمقتنيات الدنيوية» ويطلب من المؤمن أن يحاسب نفسه وينظر

---

(١) لا يزال بعض قادة التوحيد يمنعون من قصر عن الصلاة، أو تهاون فيها من مجالس الذكر التي تتناول شرح القرآن الكريم وتفسير الأحاديث النبوية، وأقوال الأئمة المعصومين.

(٢) الغفلة في مفهوم الموحدين التراخي في الصلاة والصيام وعدم قراءة كتاب الله وسنة رسوله والعمل في الدنيا ونسيان الآخرة.

(٣) الأجل عند الموحدين أجلان: أجل الموت وأجل القيامة وظهور المهدي المنتظر.

في عيبه، ويكون صادق اللسان ليِّن الجنان، نقي السر، حسن الأخلاق، سهل المعاشرة».

وقال: على الصالح أن يكون غضي العين، قليل الكلام والضحك والمزاح، كثير المروءة والصفاء، صادق المحبة ذا عفة ونزاهة، وصيانة وقناعة. وأن يكون كلامه موزوناً وطرفه مسجوناً وشره مأموناً، وسره مدفوناً.

ويعتقد الباحثون أن مشاغل الحياة الزمنية والدينية لم تدع للشيخ الفاضل مجالاً للتأليف، فكان يصرف معظم أيام الشتاء في خلوته، عاكفاً قانعاً، بذكر خالقه، وطوال الصيف جواباً من قرية لأخرى، يبث تعاليمه، ويفيض في نصائحه على الرجال والنساء، والصُلاَّح وغير الصُلاَّح املاً في جلاء الصداء عن معادن النفوس الرضية وقطع مفاصل المآثم، ويذكر بوعد الله ووعيده...

ثم في شيخوخته تطاول الموت آخذاً رفاقه عمدة المشايخ واحداً بعد الآخر، وانقلبت إبرة البوصلة إلى أسوأ مناخ أحاق بلبنان.

ولم يصلنا من نثره وشعره إلا النزر اليسير، وقد ضاع ما قاله في الحوادث المفجعة التي كانت تحصل في زمن الأتراك، وهذا بعض من أشعاره التي يحمد الله ويشكر المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يعتبره عين زمانه وعين قلب المخلصين، ويمدح الأئمة المعصومين ويقول:

الحمد لله حمداً دائماً أبدا ... ما دمت حيا ودام الروح في جسدي
والشكر للمصطفى المختار سيدنا ... عين الزمان وعين القلب والكبد
ما لي سواهم وما لي من ألوذ به ... فهم ملاذي... وآمالي، ومستندي

ويصف الأئمة عليهم السلام بقوله:

للَّه قوم سموا بالعلم والعمل ... برغبة صدقت في طاعة الأزل

ويصفهم بأهل المودة فيقول:

أهل المودة ما نالوا الذي طلبوا حتى لـربهـم فـي الخلـوة انفـردوا
تراهم الدهر، لا يمضون من بلد إلا ويبكـي عليهـم ذلـك البلـد
الـذكـر مطعمهـم والشكـر مشـربهـم والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا
مسـاجـد اللـه مـأواهـم ومسكنهـم عيشهـم طيـب فـي حبـه، رغـد

ويسأل الله بحق رسوله الكريم الذي هو للورى هاد ودليل أن يغفر ذنوبه ويقول:

بكـت عينـي وحـق لهـا بكـاهـا ومـا يغنـي البكـاء ولا العـويـل
سألتك سيدي، قصدي، رجائي بمـن هـو للـورى هـاد، دليـل
تمـن بتـوبـة، وجميـل عفـو وتغفـر مـا جنـى العبـد الـذليـل

ويقول مخاطباً الواحد الأحد وشاكراً ومصلياً على المصطفى وآله (ع):

إليك هـروبي مـن ذنـوبي وزلتي فكن لي مجيراً، لا خصيماً يعذب
فجـودك يـا مـولاي كـالبحـر زاخـر ولكنـه أشهـى، وأحلـى، وأعـذب
وللمصطفـى شكـري وحبـي لـلآلـه ومن من دعاة الحق للحق ينسب
عليهـم صـلاة منـك مـن كـل بكـرة ومـا دامـت الأنـوار تبـدو وتغـرب

ويصف أهل العرفان بقوله:

لهـم نفـوس عـن اللـذات راغبـة وما لهم رغبة في الحرص والأمل
لا يغتنـون بـأمـوال ولا ولـد ولا يـريـدون غيـر الـواحـد الأزلـي
ذلـت نفـوسهـم فـي حـب سيـدهـم جداً وجهداً... بلا ميل ولا ملل
هواه... غابو به عن ذات أنفسهم كما تغيب نجوم الليل... بالأفل

وفي مناجاة خالقه يقول:

صبـاحـك مقـرون بعـز وهيبـة وبـابـك مفتـوح لـدى كـل طـارق
أتيـت إليـك طـالبـاً لتعفـو عنـي يـا إلهـي وخـالقـي
أتسخـوا علـى هـذا الفقيـر بتـوبـة وترثي لنفسي يوم عرض الخلائق

وتغفـر لـي يـا رب مـا قـد جنيتـه وتعصمني في ما من العمر قد بقي

وقال في حق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أجمعين.

إنـه يجـب تبجيلهـم وتعظيمهـم والإبتهـاج بـذكـرهـم وتنـزيلهـم فـي منازلهم[1]، وحفظ ما ينسب إليهم من حكمهم الباهرة حسب الطاقة، وقبول أوامرهم والإنتهاء عن نواهيهم وحب كل ما يوصل إلى حبهم، والإبتهال والتضرع والتوسل لهم في غفران ما جناه من الشر وقبول ما اكتسبه من الخير، والطلب الحثيث والسؤال في رضاهم عنه وشفاعتهم له...

وكان رحمه الله يوصي بعدم تلاوة آيات كتاب الله أمام الجهلة خوف الإستهزاء، وكان يوصي بحسن التجويد والتلاوة بحسب ما أمر به الأمير السيد (قد) لجهة آيات القرآن الكريم حين قال: «لا يكون وصول ألفاظها إلى سمعه بأسرع من فهم معانيها والعمل بما فيها.

وكان رحمه الله إذا مر بأية فيها تسبيح وتقديس، يكررها مراراً بمد حسن وتعظيم بارز عن عقيدة صادقة وشوق غزير، وكان يأمر بتمكين أسمائه المقدسة تعظيماً وتشريفاً له جل وعلا، مثل: جل ذكره، وجلت قدرته، وجل ثناؤه وسبحانه...

وكان إذا مر بآية فيها ذكر عفو وغفران يكررها بطلب حثيث وقلب كسير وإذا مر بآية فيها أمر بمعروف أو نهي عن منكر يعيدها ويقررها في نفسه الشريفة، وينصب بجملته إلى العمل بها، والأمر والنهي لغيره فيها...

---

(١) حث الشيخ الفاضل على الصمت العبادي، وهو أن يذكر الله بخوف وتضرع ويكثر من الصلاة على رسوله وآله في نفسه دون جهر بالقول لأن ذلك أفعل في النفس من المجاهرة في الصلاة عليهم. بقوله تعالى: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول**﴾(سورة الأعراف: ٢٠٥) إذا جهر أحد الموحدين بالصلاة على النبي وآله فهو من باب التذكير للحضور.

ويقول بتحسر وتفجع واغبناه:

هذا العلم الشريف ندنسه بذنوبنا.

ومن آدابه مع الإخوان أنه كان بهم رؤوفاً وعليهم شفيقاً، يسر لسرورهم ويحزن لحزنهم متفقداً أحوالهم سائلاً عنهم في السراء والضراء باسطاً إليهم يده الكريمة، مساهماً لهم في ما يصيبهم من محن الزمان وظروف الحدثان، وينزلهم في منازلهم حسب ما حدث، إن جنى أحد منهم جناية، أو ارتكب ذنبا، زجره ونهاه، مع الشفقة والرفق ولين الكلام. وجعل لومه له لطيفاً وعلى قدر الذنب فإن كان عمداً كان القصاص أشد واللوم أعنف، وإن كان سهواً أو غفلة أو تقصيراً أو عدم تمييز، كان الجزاء على حسب المصلحة وبمقدار ما تقتضيه، وكان رحمه الله يستحسن إحالة أبعاد الرجل على من جاوره إذا كان ذا ميزة، لأن الجار أخبر بجاره، وإذا لم يكن عليه هوى ولا إليه جنوح. وإن كانت الجناية تحتمل مشورة ذوي بصائر ممن كان لهم معاشرة مع مشايخ السلف الصالح ومع من قبله، شاورهم واستن بسنة الصالحين المتقدمين واعتمد على ما كان فيه صواب.

وكان رحمه الله واقفاً عند الشبهة، يتجنب العجلة في حل الأمور، خصوصاً في أبعاد الإخوان وتقريبهم... وكان يقول في أبعاد الإخوان:

«يحاسبهم الله تعالى في ذنوبهم، ولا يحاسبني بظلمهم، لأن أبعاد الإخوان يهز بدني»[١].

وكان رحمه الله يحث الإخوان على القناعة والكفاف وينهي عن السرف

---

(١) الأبعاد عند الموحدين يعني حرمان المبعد من القراءة في كتاب الله، وعدم السماح له بالصلاة إلا بعد التوبة الصادقة عن الذنب الدي أرتكبه. وبذلك خلاف مع بقية المذاهب الإسلامية التي نسمح للزاني والسارق أن يقوم بالصلاة بعد ارتكابه جرم الزنى والسرقة.

والتبذير، ويثني على ما اتبع ذلك بالحمد والثناء الجميل، ويبشره باليسير والكفاية من الله، ويذكر قوله تعالى: **﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾** وكان قنوعاً شديد التواضع والطيبة، حتى أنه قال في معرض مدح القناعة تكون الكبريتة حاضرة أشعل بقشوش توفيراً عن ذمتي، وكان رحمه الله يفعل ذلك في طعامه وشرابه ولباسه، ويأمر به غيره حتى في وقت مرضه كان يقول: «هذا الزيت الذي تحرقونه إنما تحرقونه على ذمتي في السراج في الليل»، ثم يتحسر ويتوجع من ذلك لعلمه بالضرورة الداعية، كان من عاداته يحب الجلوس في العتمة لوجهين: احدهما وهو الأكبر، الإستغراق بلذة الإستحضار، والمشاهدة بقلبه للذات المقدسة، لما هو مطبوع في جبلته بالقوة، والآخر توفيراً عن ذمته.

ومن آدابه أنه كان يحب ويستحسن الرفق والإيثار بين الإخوان وبين الصحب والرفاق والعائلة كقوله تعالى:

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فاؤلئك هم المفلحون﴾.

وكان يقول إذا أراد الله بقوم خيراً أنزل بهم الرفق، فيقصد كل منهم الإيثار على نفسه لأخيه وصاحبه، وقد كان ذلك فيه قولاً وعملاً مع من جاوره ورافقه وما شاه، ومع نسائه وذويه، في الطعام واللباس وغيره، مما هو محبوب ومطلوب ومرغوب فيه بالجبلة الإنسانية، وكان نزيله مكرماً عزيزاً، كما أنه كثيراً ما كان يأمر بالتواضع وخفض الجناح، ويقول: ذلوا هذه النفوس تجدوا عاقبة ذلك عند الله عزاً لا يبور، ثم يأتي بأحاديث كثيرة عن الصلحاء، والزهاد، وكان يأمر بقطع العلائق والشواغل، وإذا نزل بالإنسان شاغل لا يقدر على دفعه يعد ذلك من نقص الحظ عند خالقه.

وكان إذا دخل عليه إنسان يتعظ منه بلسان حاله، ولسان مقاله، عاقلاً كان أم جاهلاً، فيدخل عليه بسمت، ويخرج من عنده بآخر.

لذلك كان كلامه والنظر إليه موعظة، وكان الخارجون من مجلسه يظهر فيهم أثر هذا في أنفسهم، وفيما بين أيديهم، فقال له خادمه يوماً: يا سيدنا إننا أذا دخلنا عليك، ورأيناك في هذه الحال اتعظنا بك وخرجنا تائبين ثم نعود إلى ما كنا عليه، أما أن تأخذ علينا ميثاقاً في الثبات لعل الله يمن علينا بذلك(١)، فكان جوابه بعد الإعتراف عن نفسه بالنقص، والدعاء بحسن الظن فيه من الناس: يا بعدي جزاكم الله عني خيرا، هذه درجة عالم الخصيصة لا درجة عالم المساواة.

وكان رحمه الله يتفجر توجداً مع تائبي عصره، وكان رفيقاً بهم محسناً إليهم بشوشاً في وجوههم، محبباً إليهم حفظ الفضائل ومطالعة أخبار الصالحين ووعيهم، حاضاً على السلوك المستقيم، مبشراً لهم، إن داموا عليه، بالوصول إلى العلم الشريف(٢) عندما يأذن الله، ناصحاً لهم في رفع أنفسهم عنه، تشريفاً له عما هم فيه من الذنب الكبير قائلاً لهم: «إن الظلمة لا تعادل بالنور، وإن العفاف هو الأفضل، وإن قصاص من يقع في إحدى الكبيرتين(٣) يكون بعده عظيماً، ونحو ذلك من القول والوعظ حتى يوقع في نفوس التائبين، أن طريق الوصول إلى العلم الشريف، والدخول فيه مع أهله طويل، ولا بد فيه من المشاق، ثم يتفضل عليهم بحطام الدنيا، ويرغبهم في أكل الحلال والسعي وراءه، ومجالسة الصالحين والإستفادة منهم، فيقبلون منه النصيحة ويبذلون جهدهم فيما أمرهم به، ونهاهم عنه.

وقد جاء على لسان أحد مرافقيه قوله:

---

(١) كان السابقون من الأئمة يأخذون العهد ـ الميثاق ـ على من يرتكب الذنوب بعدم العودة إليها، ودوام الإستغفار مما ارتكبوه، فأراد الخادم تجديد ذلك من قبل الشيخ الفاضل فرفض رحمه الله ـ تواضعاً، وخوفاً من الخطأ والظلم. . .

(٢) العلم الشريف هو التوحيد الذي اكتمل بالإسلام.

(٣) أي الزنا والقتل. والأكبر منهما الإشراك بالله.

. . . وقد كنا مرة عنده في الكهف بسفح الجبل زمن الصبا، فكنا نترصده خفية في الليل أنا ورفيق لي كان صالحاً رحمه الله، كي نعرف حرفته في العبادة، فكان ما يهجع في ليله إلا قليله ويقضي سائره متهجداً بصوت خفي منكسراً محزوناً، تارة يتلو في كتاب الله العزيز بنغمة خفية، وطوراً ما نسمع له من نغمة، ولا ندري أكان يبكي من خوف الله، أم كان يحاسب نفسه ويعاتبها، أم كان يفكر فيما هو مطلوب منه، هذه كانت حرفته في العبادة في ليله كقوله تعالى في الصالحين جعلنا الله منهم بحق سيد المرسلين: ﴿**كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون**﴾.

كان هذا دأبه إلى السحر رحمه الله، ثم ينهض قائماً يصلي صلاة الصبح ثو يورد ورداً مختصراً، ثم يأخذ له راحة إلى طلوع الشمس. وكان رحمه الله يكره النغمة المرتفعة في القراءة ويعد ذلك ضرباً من إظهار القوة والرياء وكان يأمر بأن تجود القراءة تجويداً حسناً متناسب الإيقاع يسمعه الحاضرون برفق. . . وذلك لسببين إحدهما: إن القراءة بالصوت المجود بالتأني والتؤدة، تولد الخشوع في قلب القارىء والمستمع معاً، والآخر لصيانة العلم الشريف[1].

وهذا بعض من مناقب الشيخ الفاضل محمد أبي هلال نفعنا الله ببركاته وجعلنا ممن سمع القول فاتبع أحسنه.

---

(١) صيانة العلم الشريف أي التوحيد من الرياء والكبرياء والزيغ والزلل.

الشيخ علي فارس (رضي الله عنه)

الشيخ علي فارس (ره) علم من أعلام التوحيد، وله شهرة واسعة بين الموحدين في التقى والورع والعلم يمتاز شعره الصوفي الذي ينبض بالحيوية والمحبة لرسول الله صلى عليه وسلم، ولأصحابه الميامين الطاهرين الطيبين، وقد نحل جسمه بحبهم، وهو من شعراء الطريقة وينشد أبناء التوحيد شعره قبل وبعد الصلاة في مجالس الذكر لتليين القلوب وجعلها قابلة لإستقبال النور الإلهي، ومن شعراء التوحيد الأمير سيف الدين يحيي التنوخي وهو من بلدة عبيه ـ الشحار ـ والشيخ أبي صفي الدين محمود من بطمه الشوف، والشيخ عبد القادر أبي علوان من الباروك، والشيخ أبي زين الدين حسين العقيلي من السمقانية، وقد نسبت إليه بعض المؤلفات المشوهة والتي أصدرها بعض دعاةِ التفرقة، ومنهم من نشأ في وادي التيم كالشيخ أبي هلال محمد المعروف بالشيخ الفاضل، والشيخ يوسف الكفرقوقي، والشيخ أبي حسين حسن الميمساني، ومنهم من نشأ في جبل السماق من ناحية حلب كالشيخ عبد الله بن ياسين، ومنهم من نشأ في جبل العرب كالشيخ أبي حسين إبراهيم الهجري من قنوات، ومنهم من نشأ في فلسطين كشاعرنا الروحي الشيخ علي فارس رضي الله عنهم أجمعين.

والشيخ علي فارس قد أوقف معظم شعره على التعبير عن شوقه لسيد المرسلين وحبيب رب العالمين وآله الطيبين، وعلى التعبير عن حال الحب

الإلهي الذي لازم روحه، وكان يكثر من التضرع لله والتوسل إليه، ويذكر نفسه بالعجز والتقصير، وحاجته إلى عفوه تعالى ومغفرته ورضوانه.

ومع أن معظم شعره قد ضاع بسبب الحروب والنكبات التي حلت بأبناء التوحيد فقد بقي لدينا ما يقل عن ألف بيت من الشعر، وقد وصفها أحد الأدباء بقوله:

«فإنها مليئة بالرقة المتناهية والوجدانية المتحررة من قيود التكلف والتصنع هذه الرقة وهذه الوجدانية ناجمتان عن إطلاق هذا الشاعر العنان لنفسه وتركها على سجيتها لتعبر عن حبه ووجده وشوقه. وعواطفه وأحاسيسه. فهو العاشق المشتاق، والعاشق المشتاق يدع نفسه تنغمر في حبيبه وتذوب، وإلا لما كان عاشقاً ولما كان مشتاقاً.

ونحن بقراءتنا لشعر هذا الشاعر الصوفي الرقيق نلاحظ هذه البساطة والسلاسة والغنائية التي لا نلاحظها إلا في الشاعر الأصيل، والتي تنم عما في شعر هذا الشاعر العاشق من حرارة في التلهف، ومن صدق في التذلل، لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

غير أن هذه العاطفة المتأججة لم تطغ على العمق في شعر هذا العارف الموحد فلقد استطاع أن يوفق بين القلب والعقل، أو قل بين المعرفة والعلم، ذلك أن التصوف هو وليد التفوق العرفاني والاختبار الروحي من جهة، والوعي الفعلي والعلم المنطقي من جهة أخرى فالتصوف هو في النهاية نتيجة عملية تلاق بين المجاهدة الواعية والأحوال الذوقية العرفانية.

فالمجاهدة الواعية قائمة على العلم والعمل وهي تتحقق من خلال مسافرة السالك من مقام إلى مقام أما الأحوال الذوقية العرفانية فهي أحوال يهبها عين الوجود ويتلقاها السالك دون وعي منه ودون إرادة.

وقد نجح الشيخ علي فارس في التعبير عن هذين الخطين المتلاقيين.

ففي التوبة والتقوى والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضى

والتسليم، وغنّى إحياء الليل بالعبادة والبكاء والتذلل والتضرغ، وغنى خلو النفس، وهو القناعة وخلو القلب، وهو الطمأنينة، وخلو السر، وهو النقاء، وخلو الحضور، وهو السياحة والإرتحال، وهو إلى ذلك شكر لله في غنائه ذلك وأطال الشكر والحمد، وهو إلى ذلك أيضاً أنب النفس الأمارة ولامها، وبكى في غنائه وانتحب وتألم وابتأس. كذلك غنى هذا الشاعر تلك الأحوال التي كانت ترد إليه من الوهاب: غنى الهيام بالله والغيبة في الله والإتحاد بنور الله، وغنى السكر بخمرة الحب وألم الشوق.

وغنى الخوف من النفس، وغنى الفناء عن الأنا، وغنى الهيبة عند القرب والسلب عند المشاهدة، وغنى محو الذات وبذل النفس، وغنى الصحو في الله والسكر فيه، كذلك غنى هذا العاشق الشاعر نحول الجسم في الحياة وخشوع القلب في القرب، وهو الذي اختبر الحب أي إختبار وعبر عنه أي تعبير وتيقن إن لا حب إلا بالفناء، في الحبيب، والفناء إنما هو فناء القلب بالخوف وفناء الكبد بالوجد، وفناء الوجه في سكب الدمع، وفناء الجسم بالشوق، فإذا ما تم ذلك حصلت الإجابة وكشف الحبيب عن وجهه وتحقق الهناء والعزة في المحب بالمحبوب، وغاب العاشق بالمعشوق.

هاموا وقاموا على الإقدام مذ شهدوا نـور الإلـه فغـابـوا فيـه واتحـدوا

ذلك هو السالك الواصل وهذا المتصوف العارف، وهذا الشاعر العاشق. وذلك ما جعلني أدرس هذه الظاهرة العرفانية والظاهرة الشعرية للشيخ علي فارس الذي هو نتيجة سلوكه هذا المسلك الإسلامي الصوفي مسلك التوحيد.

طفولته وصباه:

في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة وأواخر القرن السابع عشر للميلاد، كان يعيش في قرية يركا من قرى الجليل في فلسطين رجل من عائلة فارس، كان هذا الرجل من أبناء الدنيا، ولكنه كان فقيراً رقيق الحال لا يملك

إلا بيتاً متواضعاً وقطعة من أرض صغيرة مزروعة شجرات من الزيتون، وتزوج الرجل، كانت الزوجة فقيرة أيضاً ولكنها كانت من بنات الصلاح فصبرت على الزوج وعلى الفقر وانجب الزوجان ابنة وبعد سنين عديدة رزقا صبياً سمياه علياً كان ذلك ما بين سنة ١١١٦ للهجرة أي ١٧٠٤ للميلاد وسنة ١١٢٠ للهجرة أي ١٧٠٨ للميلاد.

وتربى الصبي في حضن أمه سنة واحدة أو بعض السنة ثم قضت الأم نحبها وتركت طفلها الرضيع في عهدة أبيه الفقير وشقيقته الفتاة الصغيرة، ولكن الأب لا يلبث أن يتزوج ثانية وتعامل الزوجة البنت والأبن معاملة خالية من حنان الأم، وإذ تنجب أولاد تزداد معاملتها السيئة لعلي الصغير ولشقيقته وينشأ الصبي وشقيقته بين والد فقير وامرأة تسومهما أنواعاً من القسوة والحرمان غير أن هذين الولدين كانا يقابلان معاملة زوج أبيهما السيئة بالصبر وتمر الأيام وتكبر البنت وتتزوج، ويبقى الصبي دون شقيقته بين أبيه وزوج أبيه وإخوته لأبيه، وتواصل الزوجة معاملتها القاسية للصبي.

على مسافة من قرية يركا تقع قرية أخرى هي قرية جولس، في هذه القرية يقطن آل طريف الذين عرفوا بالتدين والورع وتقى الله والإضطلاع بالتبعة الإجتماعية وكان أهل القريتين بحكم الجوار والقربى، يتزاورون... وكان الفتى علي إلى ذلك قد ظهرت عليه علامات التدين والصلاح والخير وتقى الله منذ نعومة أظافره، وكان لذلك يتقبل معاملة زوج أبيه له بالرضا والتسليم لأمر الله تعالى.

وانكب الفتى على تعلم القراءة والكتابة وأخذ يستشرف أسرار روحية لم تكن لأترابه... وأخذ الفتى يتردد متلهفاً إلى جولس ليزور هذه العائلة الكريمة عائلة طريف التي كان منها الشيخ سلمان رحمه الله وكأنه شعر، وهو في السن المبكرة، إنه استمرار لذلك الشيخ الدين العالم.

ثم تتالت زياراته. إنه ليحس بما لا يحس به الكثير من الصبية. وإنه ليتذكر قدسية هي فيه ومنه، وتقى وورعا يلفانه ويدخلان إلى قلبه... كان

ذلك يدخل إلى قلبه عزاء على ما كان يعانيه في بيت أبيه من معاملة سيئة. . . وكأنه يردد في نفسه قوله عزوجل.

﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم﴾.
وأي جهاد كان يجاهده هذا الفتى لكأن حديث رسول الله كان نصب عينيه إذا يقول صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم من المسلم، من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزوجل. إذا فليجاهد هذا الفتى نفسه حتى يعلم الله جهاده وصبره.

«والصبر من الإيمان كما يقول الإمام علي عليه السلام بمنزلة الرأس من الجسد».

صبر الفتى فلم يشك يوماً ألم يقل أبو العباس بن عطاء: «الصبر الوقوف على البلاء بحسن الأدب».

غير أن منزلته التي كانت تعلو يوماً بعد يوم لم ترق لزوج أبيه التي كانت تكن له الحسد والبغضاء. فأمعنت في معاملتها السيئة له، وإذ يجد أنها مصرة على ظلم نفسها بظلمها إياه يقرر أن يجنبها الظلم، رحمة بها وخوفاً من أن يكون بتسبيبه لها ظلم نفسها يقترف إثماً. وكان إلى ذلك يرى أباه الجندي مصراً هو الأخر على جهالته باستمراره في الخدمة في جيش ظاهر العمر، فالمال الذي يكسبه من هذه الخدمة ليس مالاً حلال، لما لمال الحكام من مصادر تقوم على الظلم والطغيان، واستغلال مال الناس وممتلكاتهم، وذلك مما يقسي القلب ويقوي الطبائع الضدية في الإنسان أما هو فكان يرتزق من نسخه للمصحف بخطه الجميل لقد يئس من إصلاح هذين الزوجين واستنكف، وهو الفتى الورع، من مساكنتهما، فهما يؤخرانه عن العبادة وتحصيل العلم، وقد يدخلان إلى قلبه قسوة توقظ فيه طبائعه الظلمية. وهو الذي عمل ويعمل على إطفائها بماء حقائق التوحيد. لذلك يقرر هذا الشيخ الفتى مغادرة بيت أبيه إيثاراً للسلامة والعافية. . . طلباً لله بالله، يردد ما ذكره

رسول لله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي إن الله يقول في عبده: «وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

وإذ يتوكل هذا الشيخ الفتي على الله حسب توكله يغادر بيت أبيه. ويتسلق التلال ويتخذ من مغارة هناك في أعالي سفح جبل وادي السماك العمودي صومعة له. . .

في هذه المغارة المقفرة الموحشة، وجد هذا الفتى الشيخ الأنس، كل الأنس وأخذ في الصلاة والعبادة، والتهجد والتأمل والمناجاة، بعيداً عن الناس وعما يأتونه من شر. كان قريباً من الطبيعة الخيرة حيث هدوء السكون يصرف الجوارح عن صراخ الأنا وضجيج الإنشغال في مطالب النفس الأمارة والتكالب على إشباع الذات وإطاعة الرغبات. وقد مدح رسول الله (ص) شَعَفَ الجبال حيث يفر المرء بدينه من الفتن إلى الله، وذلك في قوله: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع المطر يفر بدينه من الفتن».

وقد ساوى الرسول (ص) بين المجاهد في سبيل الله والعابد المنعزل في قوله كذلك: «إن من خير معايش الناس كلهم رجلاً أخذا بعنان فرسه في سبيل الله إن سمع قرعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه، أو رجلاً غُنيمة له في رأس شعفة من هذه الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلاَّ في خير. . .».

وقال عليه الصلاة والسلام: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله».

أما الشيخ علي فارس لم يأخذ معه إلى شعفته غنيمة ولا شيئاً من حطام الدنيا بل زهد في كل شيء وترك كل شيء، حتى نفسه تركها إليه تعالى وأخذ يصرف همه إلى الله ويأنس مع الله. . .

غير أن عزلة النفس عن الاثام، مع وجود المرء بين الزحام، لا تتأتى إلا إذا درب المرء جسده على الإستغناء وروض نفسه على العزلة وأذاقها حلاوة ربطها بالحق.

هذه الوحدة والعزلة هما كما قال أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي «مِلاكُ الأمر ومتمسَّكُ أرباب الصدق، فمن استمرت أوقاته على ذلك فجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه».

يروى أن رجلاً زار مرة أبا بكر الوراق، فلما عزم الرجل على العودة قال لأبي بكر «أوصني» فقال: «وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة وشرهما في الكثرة والإختلاط». وقد قال ذو النون المصري: «لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة».

في مغارة وادي السماك بقي الشاب الشيخ أياماً لا يرى أحداً ولا يراه أحد إلا الله، وعلم الوالد بمغادرة ابنه إلى الكهف، فذهب في أثره وأخذ يسترضيه ويسأله العودة إلى البيت... غير أن الشاب الشيخ لم يستجب لسؤال أبيه... ولم يقبل ببقاء أحد الإخوة معه لخدمته... أليس هو القائل:

فمن ذا الذي أدعوه دونك في الورى   إذا لم تكن بي سيدي أنت رافق

ومرت الأيام وأصبح الشاب الشيخ من أصحاب الكرامات، لكنه قد أشفق على نفسه أن ينسب إليها كرامة: فالكرامة في نظره حجاب يحجبه عن الله ذلك لأنه لا يطلب الله به... وإنما يطلب الله بالله... وقد قال الجنيد: «حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات، فكيف يسكن هذا الشيخ إلى كرامة إذاً وهو الذي يسعى إلى أن يكشف الله له الحجب لأنه بات يحبه لذاته سبحانه... أما الكرامات فيعتبرها لأصحاب المنازل وهو لا ينسب لنفسه أية منزلة فهو يقول بتحرق وتواضع مقارناً بينه وبين أصحاب المنازل العليا من العارفين.

من أين لي ولمن مثلي منازلهم   ونحن نجترح العصيان نأتثم

ولا اجتناب ولا جوع ولا سهر ... ولا قيام بفرض فيه ملتزم
فما لنا من صلاح نرتجيه سوى ... حسن العقيدة ثم الحب علَّهم
أن يقرنوا بجميل اللطف من لنا ... فهو الكريم ومن أوصافه الكرم
له التقدس والإكبار منفردا ... له التسبح والإجلال والعظم
له التوحد والإجلال مقترنا ... والشكر للمصطفى ثم الثنا العمم
صلى عليه إله العرش خالقنا ... وآله كلما ريح الصبا نسم

ويعتبر الشيخ علي أن الموحد الحق هو سيد المرسلين صلوات الله عليه فلا توحيد إلا بالإيمان به، وبما أنزل عليه فهو يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله:

أنت الولي والقضا ... يا كوكبا قد أضا
أحكم فمنا الرضا
يا حجة يا قدر ... يا خير كل البشر
والوحي فيه استقر

وكان الشيخ علي فارس يفرط في عشقه لله ولرسوله ولأوليائه وقد بث شوقه في قصيدة مطلعها:

أيا كوكبا بالشرق أشرقت زاهيا ... ومن أفق أحبابي تبدَّيت وافيا

ويواصل الشيخ قوله:

فبلغهم عني السلام وقل لهم ... عبيدكم المضني لقد صار واهيا
وأخبرهم يا طالع السعد أنني ... مقيم على عهد الولا لست ناسيا
وقل لهم قد طلق النوم خجلة ... ومن خوفه من عتبكم عاد ذاويا
ولا زال مسقوماً ولا زال خائفا ... ولا زال مهموماً ولا زال باكيا
ينوح ويبكي خيفة من لقاكم ... ودمع له أضحى لخديه كاويا
فلا لذة يلقى بنوم ويقظة ... ولا يجد المأكول والشرب حاليا

وتذكرنا هذه الأبيات، لما فيها من رقة وعاطفة صادقة، ومن شوق

وتلهف بمحي الدين بن عربي، إذ يقول:

ألا يا نسيم الريح بلغ مها نجد　　بأني على ما تعلمون من العهد

وهذا يدل بأن شاعرنا الشيخ علي قد تأثر بشعر محي الدين بن عربي خلال مطالعاته الشخصية، ومن خلال ما تلقاه في دمشق من علم التصوف.

ومن قوله في مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام:

فأنت رسول الله بالحق والهدى　　ولولاك لم يدر الإله الخلائق
وأنت لأبواب الهداية فاتح　　وباب العمى والشك والشرك غالق
وأنت أمين الله مودع سره　　وضدك خوان الأمانة بائق
وأنت محل الوحي خصصت بالقوى　　وبحر بماء الوحي والعلم دافق
رمزت علوم الحق في كل شرعة　　وأنت لها في غرة الكون راتق

ويواصل وصفه بالقول...

ونورٌ بك الأنوار ضاءت وابصرت　　وبحر بك امتد البحور الدوافق

ويختم قصيدته بقوله:

عليك صلاة الله ما النبت قد نما　　وما قد دجا ليل وما الصبح بارق
عليك صلاة الله ما نسم الصبا　　وما حن مشتاق وما الطرف رامق
كذا الآل والأصحاب ما سار سائر　　ما ترجمت لسن وما الغيث وادق

وله قصيدة في سيد المرسلين المصطفى عليه الصلاة السلام جاء فيها:

يا روح روح حياة الدهر يا مختار　　يا محض نور منه امتدت الأنوار
يا مرسلا بالهدى يا نقطة البيكار　　من مات شوقاً بحبك ما علاه العار
يا سيد الرسل أنت السيد اليعسوب　　يا صاحب الأمر يا من أمره موجوب
ياخارق الحجب يامن بالحجب محجوب　　متى نراك ونحظى فيك بالمطلوب

وله قصائد عدة لا يتسع المقام لها في مدح الحبيب سيد المرسلين المصطفى الأمين.

وقد توفي الشيخ الزاهد العابد في ليلة الجمعة من اليوم الرابع عشر من شهر رمضان المبارك من سنة ١١٦٧ بينما كان مستغرقاً في صلاته فسجد مع الساجدين ولكن سجوده طال، فقام إليه البعض فوجدوه ميتاً وهو ساجد بين يدي ربه، وكان ذلك في الساعة الثانية قبيل الفجر، وقرت عيناه بهذا العز الذي منحه الله إياه، عز القرب والسعادة بالإسلام والتوحيد.

الخاتمة

وختاماً فإن طائفة الموحدين مشمولة بروضة الإسلام وعقائدها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله والأئمة المعصومين، وما تباين مع مفهوم البعض يعود لاجتهادات وتفسيرات لكتاب الله، وهي ككل إجتهاد قابلة للتطور إثباتاً أو نفياً، ومادة للمناقشة والبحث العلمي والفقهي.

والموحدون ينظرون إلى تفاسير الغير وإجتهاداته بإحترام وتقدير سيما إذا كانت صادرة في حدود حسن النية، وخدمة الدين، وطاعة لله ورسوله وهم مع كل إجتهاد يوحد بين المسلمين، وينفرون من كل إجتهاد يفرق بينهم، والموحدون كغيرهم من بعض الطوائف الإسلامية قد عانوا الأمرين من فتاوى وعاظ السلاطين والملوك، وصبروا طويلاً على من أساء إليهم، فلعل الله يهدي القوم الضالين، ويفرج الكرب عن الصابرين.

وأتوجه إلى إخواني الموحدين لأذكرهم أن الإسلام نعمة علينا أنزله الله لنعمل به وليس لنتكلم فيه. فهذه الجوهرة التوحيدية التي نقلها إلينا الإسلام علينا إن نحافظ عليها بدوام الصلاة والصيام وتطبيق باقي الأركان بقلب خاشع، وعقل متوجه إليه سبحانه وإلى رسوله والأئمة الطاهرين الطيبين.

والصلاة تطهر القلوب، وتقارب بين المؤمنين وتتوج وحدتهم وتوحيدهم.

فأئمتنا تركوا لنا الإسلام ملجأ أميناً وحصناً منيعاً وأمرونا بالجهاد في الدفاع عن معتقداته التوحيدية وأن نعمل على الوحدة بين المسلمين المؤمنين الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله التي هي رأس الأركان والعبادات، فلا إسلام ولا توحيد إلا بالدخول من هذا الباب.

وما نتمسك به من أجتهادات خاصة تتعلق ببعض الأمور التي تبدو مخالفة للمألوف فإن العلم والتطور كفيلان بإثبات أو نفي أي إجتهاد، فلا نجعل من إجتهاد هذا الفريق أو ذاك وسيلة للإبتعاد عن بعضنا البعض أو عن الآخرين فقد ولدنا مسلمين قبل أن نكون سنة أو شيعة أو موحدين. وتعدد الإجتهادات في حدود حسن النية دليل غنى الإسلام وخصبه، وفي حدود سوء النية، يمكن أن تكوِّن مذاهباً أو أدياناً متعددة يضرب أتباعها بعضهم رقاب بعض.

فلا تلتفتوا إلى أمس، فقد مضى أمس بما فيه وجاء اليوم بما يقتضيه من العودة إلى التمسك بالدين، والإستمرار بالصلاة والتأمل لنصل إلى الأعتاب القدسية، وتطمئن النفوس بقربه تعالى بعد أن نكتشف بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد.

ونتمسك بجذورنا الإسلامية، ولا ننس الجهاد الأصغر والأكبر في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، وعلينا التسامح فيما بيننا وبين الآخرين، والتقارب بما يرضي الله ورسوله وأئمته، ولنحسن لمن أساء إلينا فإن الله يحب المحسنين. ولنغفر سيئات بعضنا البعض فلعل الله يغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا.

ونهضتنا الدينية تكمن في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة أو الخمس من القادرين عوناً للمحتاجين، والمساكين وذوي القربى، ونعلم أن المساهمة في بناء الجوامع بعد هدمها من أعداء الدنيا والدين فيه أجر كبير، والصلاة فيها واجب فرضه الله وحثت عليه الأئمة، ولننس الماضي وشجونه ونعيش مع

الحاضر وشؤونه، ولنكن فريقاً راحداً في سبيل الوحدة والتوحيد ولنعمل بقوله تعالى:

﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾ (سورة الأنبياء: ٩٢).

﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾ (سورة آل عمران: ١٠٣).

﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**﴾ (سورة الأنعام: ١٥٩).

﴿**ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ (سورة الروم: ٣٢).

صدق الله العظيم
والسلام على المؤمنين الموحدين
«المؤلف»

نبذة عن الدكتور مصطفى الرافعي

ـ ولد الدكتور مصطفى الرافعي في طرابلس لبنان عام ١٩٢٤. وتلقى علومه الإبتدائية والثانوية فيها.

ـ حصل على الشهادة العالية من كلية الشريعة بجامعة الأزهر سنة ١٩٤٥.

ـ نال إجازة التخصص في القضاء الشرعي من جامعة الأزهر نفسها سنة ١٩٤٧.

ـ سافر إلى فرنسا عام ١٩٤٨ حيث التحق بقسم الدكتوراه في الحقوق (بجامعة باريس).

ـ وفي الوقت نفسه التحق بقسم الدكتوراه في الآداب (بالسوربون) وسجل فيها أطروحة موضوعها: (تطور الفقه الحنفي في مصر على عهد المماليك).

ـ حصل على لقب دكتور في الحقوق من جامعة باريس سنة ١٩٥٠. وكان موضوع أطروحته: (الطلاق في الإسلام) باللغة الفرنسية.

بعد عودته إلى لبنان من باريس زاول المحاماة لفترة قصيرة.

ـ عيّن قاضياً شرعياً لمحافظة البقاع عام ١٩٥١، ثم قاضياً لطرابلس عام ١٩٥٣، ثم قاضياً لبيروت عام ١٩٥٤.

ـ واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٩٦١ حيث عين مستشاراً لدى المحكمة الشرعية السنية العليا.

ـ كان طيلة مدة توليه القضاء الشرعي في بيروت يشغل ـ إلى جانب القضاء الشرعي ـ منصب أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية.

ـ إنتدب مستشاراً ثقافياً للبنان لدى: مصر والسودان والحبشة عام ١٩٦٢ وكان مقره الدائم في القاهرة.

ـ واستمر في هذا المنصب زهاء عشر سنوات، ثم عاد إلى لبنان والتحق بملاكه الأساسي (القضاء الشرعي) كما عاد إلى التدريس في الجامعة اللبنانية بكليتي الحقوق والآداب، وقد شغل إلى جانب هذا وذاك مديرية الفروع الجامعية في لبنان الشمالي مدة سنتين تقريباً.

ـ كان خلال وجوده في السلك الدبلوماسي بالقاهرة يقوم بتدريس (مادة التنظيم القضائي في لبنان) إلى طلاب قسم «الماجستير» في معهد الدراسات القانونية التابع لجامعة الدول العربية (وهذا المعهد يدخله من جامعات الدول العربية كل من كان حائزاً على إجازة الليسانس في الحقوق بدرجة «جيد» على الأقل...).

ـ مثّل لبنان عام ١٩٥١ في (المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في «كاراتشي» عاصمة باكستان.

ـ في عام ١٩٥٥ ترأس بعثة الحج اللبنانية الرسمية إلى مكة المكرمة.

ـ حضر مؤتمرات (مجمع البحوث الإسلامية) في القاهرة وألقى أبحاثاً فيها.

ـ حضر عشرات المؤتمرات والندوات والحلقات واللجان في نطاق (جامعة الدول العربية)، وكان يرأس باستمرار ـ طيلة السنوات العشر التي أمضاها في القاهرة ـ اللجنة الثقافية الدائمة بسبب التغيُّب المستمر لرئيسها الأصيل عميد الأدب العربي د. طٰه حسين.

ـ مثّل لبنان في الندوة الثانية لتاريخ العلوم عند العرب التي انعقدت في مدينة حلب وألقى فيها بحثاً عن الحضارة العربية نشرته ـ في حينه ـ مجلة التراث العربي في دمشق.

ـ في عام ١٩٧٥ تأسس المجلس الثقافي للبنان الشمالي وأنتخب الدكتور مصطفى الرافعي رئيساً بالإجماع لثلاث دورات متتاليات أي: (مدة ست سنوات). ثم في عام ١٩٨١ أنتخبته الجمعية العمومية رئيساً فخرياً للمجلس بعد أن أنتخبت هيئة إدارية جديدة.

ـ أنتخب رئيساً لإتحاد المغتربين العرب في بيروت فور تأسيسه عام ١٩٧٢.

ـ بعد تأسيس جمعية أهل الفكر في لبنان أنتخبته رئيساً بالإجماع.

ـ في عام ١٩٨٥ عينته الجمهورية العربية الليبية عضواً في المجلس الإداري لمعهد الإنماء العربي في بيروت.

ـ علاوة على محاضراته الكثيرة ومقالاته العديدة في صحف لبنان والقاهرة ـ كالأهرام والأخبار ومجلة منبر الإسلام ـ وكذلك المجلة العربية التي في السعودية، ومجلة «المنبر» التي تصدر في باريس، ومجلة الفكر العربي وكذلك مجلة الفكر الإستراتيجي اللتين تصدران عن معهد الإنماء العربي في بيروت فإن:

للدكتور مصطفى الرافعي المؤلفات المطبوعة التالية:

١ ـ طرابلس الفيحاء ـ وهو باكورة مؤلفاته ـ وطبع في القاهرة عام ١٩٤٢.

٢ ـ الطلاق في الإسلام باللغة الفرنسية طبع في حريصا ـ لبنان.

٣ ـ الإسلام نظام إنساني، طبع في القاهرة وفي بيروت عدة مرات ودُرس بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية.

٤ ـ الإسلام إنطلاق لا جمود، طبع في بيروت عدة مرات، وترجم إلى اللغة الفارسية.

٥ ـ حضارة العرب، طبع في بيروت عدة مرات ودُرس في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية.

٦ ـ نحن وأميركا، طبع في بيروت عام ١٩٦٠ بعد عودة الدكتور الرافعي من الزيارة الرسمية التي قام بها إلى الولايات المتحدة الأميركية بدعوة من حكومتها ـ إذ ذاك ـ (في نطاق الدعوات الرسمية التي توجَّه للقادة وكبار الشخصيات في العالم).

٧ ـ من فوق المنبر، وهو كتاب في الخطب المنبرية وضعه الدكتور مصطفى الرافعي بناء على طلب وزير الأوقاف المصري وطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة عدة مرات، ووزع على سائر أنحاء العالم الإسلامي.

٨ ـ التنظيم القضائي في لبنان من الناحيتين: الشرعية والقانونية، وقد طبعته (جامعة الدول العربية) في القاهرة.

٩ ـ الإسلام ومشكلات العصر، طبع في لبنان.

١٠ ـ الدعوة والدعاة في الإسلام، طبع في لبنان.

١١ ـ فنون صناعة الكتابة، طبع في لبنان وكان يُدرس في الجامعة اللبنانية.

١٢ ـ الدبلوماسية، طبع في لبنان وكان يدرس لطلاب قسم العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية.

١٣ ـ الأحوال الشخصية، طبع في لبنان عدة مرات، ويُدرس في كليه الحقوق بالجامعة اللبنانية.

١٤ ـ إسلامنا: (في التوفيق بين السنة والشيعة)، طبع في بيروت باللغة العربية، وترجم في لندن إلى اللغة الإنكليزية، كما ترجم إلى اللغتين الفارسية والاوردية.

١٥ ـ نظام الأسرة في لبنان، (فقهاً وقضاءً) ويدرس في الجامعة اللبنانية.

١٦ ـ الإسلام دين المدنية القادمة، طبع في بيروت (دار الكتاب العالمي).

١٧ ـ تاريخ الفقه والفقهاء عند المذاهب الستة.

١٨ ـ تاريخ التشريع، ويُدرس في كليات الحقوق.

١٩ ـ القواعد القانونية والشرعية، ويُدرس في كليات الحقوق.

٢٠ ـ المبادىء الشرعية في علميْ الفقه وأصوله، ويُدرس في الجامعات الإسلامية.

٢١ ـ الإمام الخميني (لبِنة أساسية في سوسيولجيته وسيكولوجيته وسياسته وفقهه).

٢٢ ـ عرب كتاب: (في تقسيم العمل الإجتماعي) وذلك بتكليف من منظمة اليونسكو في بيروت.

٢٣ ـ راجع تعريب كتاب (السياسة) لأرسطو، وذلك بتكليف من منظمة اليونسكو في بيروت أيضاً.

أما مؤلفاته المعدَّة للطبع فهي:

٢٤ ـ تطور الفقه الحنفي في مصر على عهد المماليك.

٢٥ ـ الكتاب الأخضر في ميزان الإسلام.

٢٦ ـ أعياد ومواسم في الإسلام.

٢٧ ـ خروج العرب من التاريخ أوْ عودتهم لقيادة العالم من جديد.

ويحمل الدكتور مصطفى الرافعي الأوسمة التالية:

١ ـ وسام الإستحقاق اللبناني المذّهب.

٢ ـ وسام الأرز الوطني من رتبة (كومندور).

٣ ـ وسام الإستحقاق المصري من الدرجة الثانية (ضابط كبير) مع الوسام الذهبي.

٤ ـ وسام الإستحقاق الفرنسي للتضحية العامة من رتبة (كومندور).

٥ ـ الوشاح الأكبر للخدمات الإنسانية من باريس.

٦ ـ الوشاح الأكبر للإتحاد العالمي لأعمال البر والخير.

٧ ـ بلاك مذهب علمي من الأكاديمية الفرنسية (لوتاس).

٨ ـ بلاك مذهب من الأكاديمية الفرنسية العليا (شعبة القانون).

٩ ـ نجمة السلام الفرنسية المذهبة.

١٠ ـ الوسام البلجيكي ـ الأسباني، ذو التاج المذهب من رتبة (كومندور) بروكسل.

١١ ـ وسام الصليب الأكبر من إيطاليا.

١٢ ـ الوسام الذهبي لمنظمة فرسان مالطة من رتبة (كومندور).

١٣ ـ مفتاح مدينة توليدو (بولاية أوهايو) بأميركا.

١٤ ـ مفتاح مدينة ديترويت (بولاية ميشغن) بأميركا.

١٥ ـ شهادة مواطن شرف في ولاية تكساس بأميركا.

أطروحات مطبوعة عن الدكتور مصطفى الرافعي:

١ ـ شخصيات إسلامية معاصرة، تأليف الأستاد إبراهيم البعثي، مطابع دار الشعب في القاهرة.

٢ ـ الدكتور مصطفى الرافعي والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، تأليف الدكتور محمد عزت نصر الله، المكتب الفلسطيني للإعلام ـ بيروت.

٣ ـ الدكتور مصطفى الرافعي: (غرفة من أفكاره ومواقفه)، إعداد الدكتور فوزي خضر، طبعته الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت.

٤ ـ البعد الإنساني في مؤلفات الدكتور مصطفى الرافعي أطروحة دكتوراه عن الدكتور مصطفى الرافعي هي قيد الإنجاز ـ في الجامعة اللبنانية.

٥ ـ أطروحة دكتوراه دولة للدكتور فوزي خضر مسجلة في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية بعنوان: «الفكر الإسلامي والمعاصرة عند الشيوخ الثلاثة»: عبد الله العلايلي والدكتور مصطفى الرافعي والدكتور صبحي الصالح.

المحتويات

. . . وهكذا ترك هذا الواقع التكفيري والتضليلي أثره السلبي على المستضعفين هنا وهناك بحيث ابتعدوا أو أبعدوا عن الساحات العامة الفاعلة وعاشوا في عزلة عن التفاعل الايجابي مع الواقع العام.

وهذا الكتاب ـ الذي يمثل مؤلفه موقعاً فكرياً شرعياً متقدّماً في الساحة الموحدية وهو سماحة الشيخ مرسل نصر ـ انطلاقة جديدة موضوعية في توضيح العقيدة الدرزية في تصوراتها الاسلامية في الخطوط العقيدية العامة بحيث لا تختلف عن أي أساس عقيدي للمسلمين جميعاً وتبيان النظرة في التفاصيل العبادية. . . . وشرح الأحكام الفقهية في العقود والمعاملات ونحوها بما لا يختلف عن الخطوط العامة في الفقه الاسلامي مع بعض الاختلافات الاجتهادية في هذا الحكم أو ذاك. . . .

إن هذا الكتاب يمثل وثيقة ثقافية حية بأسلوب الصراحة والوضوح، ولذلك فإننا نجد فيه نقلة نوعية في توضيح حقائق هذا المذهب الاسلامي لتنطلق المناقشات حوله من موقع علم وفكر.

. . . . وبذلك يمكن أن نتخلص من الضباب الفكري المذهبي، والدخان النفسي الخانق لننفتح على الصحو المشرق المبدع للحقيقة والهواء الطلق النظيف للفكر.

سماحة السيد محمد حسين فضل الله

. . . . . فإن الموحدين (الدروز) الذين يؤمنون بالله رباً، وبمحمد بن عبد الله رسولاً، وبالقرآن دستوراً، وكذلك يؤمنون بأن القيامة حق، والحساب حق، والجنة حق، فلن يبقى ثمة مجال لتكفيرهم والحكم عليهم بفساد عقيدتهم وخروجهم من ربقة الاسلام، بل يكون الخلاف بينهم وبين المذاهب الاسلامية الأخرى ليس خلافاً على جوهر الدين وأصوله، إنما هو خلاف في الفروع، وهو خلاف معتاد يقع للاختلاف في وسائل النظر وطرق الفهم، على أن هذا النوع من الاختلاف في الفروع لا يمكن دفعه لأنه واقع لا محالة مادام للناس عقول تفكر وتنتج وتستنتج.

الدكتور مصطفى الرافعي